

المسئل العصفية

في تهذيب

السلوك العملي

(٤٤٤) فائدة

من المجلد العاشر (علم السلوك) من مجموع فتاوى شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية

هَدَّبَهُ/

د. عاصم بن محمد اللحيدان

القاضي بالمحكمة العامة بالرياض

١- أصول الإيمان وقواعد الدين مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك. اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان واستكتبها وكل منا عجلان. فأقول: هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين. ٥/١٠

٢- فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محذور. والمقتصد: المؤدي الواجبات والتارك المحرمات. والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه. وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تمحى عنه: إما بتوبة والله يحب التوابين ويجب المتطهرين، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة وإما بغير ذلك. وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم في كتابه بقوله: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} * الذين آمنوا وكانوا يتقون { فحد أولياء الله: هم المؤمنون المتقون، ولكن ذلك ينقسم: إلى عام وهم المقتصدون، وخاص وهم السابقون، وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصدقيين. ٦/١٠

٣- وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان: فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب والسيئات المقتضية للعقاب حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. ٧/١٠

٤- قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها. ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه. أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله. فما دام يرى فعله حسناً وهو سيئ في نفس الأمر فإنه لا يتوب. ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال. ٩/١٠

٥- فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}. ١٠/١٠

٦- من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى: { فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين } . ١٠/١٠

٧- وقال تعالى: { وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون } وهذا استفهام نفى وإنكار: أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وإنما نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ إنها بالكسر تكون جزما بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة؛ ولهذا قال من قال من السلف كسعید بن جبیر: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها.

١٠/١٠

٨- كان بعض المشايخ إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفره ولا يشعب قلبه أمره بالصدق. ولهذا كان يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمتهم ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولوا: قل لمن لا يصدق: لا يتبعني. ويقولون: الصدق سيف الله في الأرض وما وضع على شيء إلا قطعه ويقول يوسف بن أسباط وغيره: ما صدق الله عبد إلا صنع له وأمثال هذا كثير. والصدق والإخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فإن أساس النفاق الذي يبني عليه هو الكذب؛ ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق كما في قوله تعالى { قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا } إلى قوله: { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون } . ١١/١٠

٩- فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط؛ وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر وكفى بريك هاديا ونصيرا. والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر. حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى: { تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم } وقال تعالى: { الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير } وقال تعالى: { وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم } والحديد أنزل من الجبال التي خلق فيها. ١٣/١٠

١٠- وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة. ١٣/١٠

١١- فمن لم يستسلم لله فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام والإسلام ضد الشرك والكبر. ويستعمل لازما ومتعديا. ١٤/١٠

١٢- الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال أحد. ١٦/١٠

١٣- وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين كقوله تعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} وقوله: {ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون} وقوله: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} وقوله: {ولا يحزنك قولهم} وقوله: {لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم} وأمثال ذلك كثير. وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب. ١٦/١٠

١٤- وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وإن كان محمودا من جهة أخرى. وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل أحد من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين ومن قال: إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها: فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وإنما يخرج عنها كافر أو منافق. ١٧/١٠

١٥- قال من قال من السلف: إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: {إياك نعبد وإياك نستعين}. وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد. ١٨/١٠

١٦- روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {يقول الله عز وجل: يا ابن آدم إنما هي أربع واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين خلقي. فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئا وأما التي هي لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الإجابة وأما التي بينك وبين خلقي فأنت للناس ما تحب أن يأتوا إليك}. ٢٠/١٠

١٧- فإن العبد ابتداءً يجب ويريد ما يراه ملائماً له والله تعالى يجب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه ويجب الوسيلة تبعاً لذلك وإلا فكل مأمور به فممنفعتها عائدة على العبد وكل ذلك يجب الله ويرضاه. ٢٠/١٠

١٨- فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا وهو غلط بل التوكل في الأمور الدينية أعظم. ٢٠/١٠

١٩- والزهد المشروع: هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أن الورع المشروع: هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرحح منها كالواجبات، فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع في الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين. ٢١/١٠

٢٠- الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع. ٢١/١٠

٢١- ما قاله بعضهم في الدعاء أنه لا حاجة إليه: لأن المطلوب إن كان مقدراً فلا حاجة إليه وإن لم يكن مقدراً لم ينفع الدعاء، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً. وكذلك قول من قال: التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة وإنما هو عبادة محضة. وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضاً، وكذلك قول من قال: إن الدعاء إنما هو عبادة محضة. فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد: وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة أيضاً تكون من العبد؛ ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيتها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية. ٢/١٠

٢٢- والله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة: من الكلمات والأمر والإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعي وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية. ٢٤/١٠

٢٣- قال في الأمر الديني: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى}. ٢٤/١٠

٢٤- وقال في الكوني: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون}. ٢٤/١٠

٢٥- وقال في الإرادة الدينية: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر}. ٢٤/١٠

٢٦- وقال في الإرادة الكونية: {ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد}. ٢٥/١٠

٢٧- وقال تعالى في الإذن الديني: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين} وقال تعالى في الكوني: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله}. وقال

تعالى في القضاء الديني: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} أي أمر. وقال تعالى في الكوني: {فضاهن سبع سماوات في يومين}. وقال تعالى في الحكم الديني: {أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد} وقال تعالى: {ذلكم حكم الله يحكم بينكم} وقال تعالى في الكوني عن ابن يعقوب: {فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين}. ٢٥/١٠

٢٨- وقال تعالى في التحريم الديني: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير} {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم} الآية. وقال تعالى في التحريم الكوني: {فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض}. ٢٦/١٠

٢٩- وقال تعالى في الكلمات الدينية {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن} وقال تعالى في الكونية: {وقمت كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا}. ٢٦/١٠

٣٠- أنه صلى الله عليه وسلم بين أن العواقب التي خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التي يصيرون بها إلى ذلك، كما أن سائر المخلوقات كذلك؛ فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح واجتماع المائين في الرحم، فلو قال الإنسان: أنا أتوكل ولا أطأ زوجتي، فإن كان قد قضي لي بولد وجد وإلا لم يوجد ولا حاجة إلى وطء كان أحق بخلاف ما إذا وطئ وعزل الماء فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله إذ قد يسبق الماء بغير اختياره. ٢٦/١٠

٣١- أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين، كما خلق آدم ومن خلقه من أب فقط، كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من أم فقط، كما خلق المسيح ابن مريم عليه السلام لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة. ٢٧/١٠

٣٢- وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن حيث يجب القود في ذلك. ٢٩/١٠

٣٣- فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته، إذ النافع له هو طاعة الله. ٣١/١٠

٣٤- وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح. ٣١/١٠

٣٥- قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفكحة والمتعبدة؛ فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف

والعجز والخذلان؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور. ٣٢/١٠

٣٦- قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله. ٣٣/١٠

٣٧- روي أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله. ٣٣/١٠

٣٨- وقسم ثان: يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيته ورضاه وغضبه ومحبهه وهذا حال كثير من المتفكرة والمتصوفة ولهذا كثيرا ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود ولا يقصدون ما يرضي الرب ويحبه وكثيرا ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي ويسمون هذا حقيقة ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوي مرضاة الرب ومحبهه وأمره ونهيته ظاهرا وباطنا. وهؤلاء كثيرا ما يسلبون أحوالهم وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الإسلام؛ لأن العقاب للتعوي، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيته فليس من المتقين فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة في بدعة يظنونها شرعة وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر؛ والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة. ٣٣/١٠

٣٩- قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون

أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليّة قدح في الشرع، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع. ٣٥/١٠

٤٠- من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا. ٣٥/١٠

٤١- من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة، وإن كان في

حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة، كما أن من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله، بل خارج عن حقيقة الإيمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة. ٣٦/١٠

٤٢- وقد ذكر الله هذه الكلمة حسبي الله في جلب المنفعة تارة وفي دفع المضرة أخرى. فالأولى في

قوله تعالى {ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله} الآية. والثانية في قوله: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}. ٣٦/١٠

٤٣- والرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه. ٣٧/١٠

- ٤٤ - ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا؛ ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء؛ فإذا وقع انفسخت عزائمهم. ٣٧/١٠
- ٤٥ - كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك أو يطلب ولاية أو يقدم على بلد فيه طاعون. ٣٨/١٠
- ٤٦ - أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء فيبخل بالوفاء؛ كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهداً على أمور وغالب هؤلاء يتلون بنقض العهود. ٣٨/١٠
- ٤٧ - كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات. ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه. وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعاً وقرنه بالصلاة في قوله تعالى ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾. ٣٩/١٠
- ٤٨ - وجعل الإمامة في الدين مورثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة ومعرفة خشية والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة؛ ومذاكرته تسبيح. به يعرف الله ويعبد وبه يمدح الله ويوحد الله بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم ويتهون إلى رأيهم. فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولا بد في الجهاد من الصبر. ٣٩/١٠
- ٤٩ - فلا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر. ٤٠/١٠
- ٥٠ - وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء: هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدین وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين. ٤٠/١٠
- ٥١ - لم يجيء في القرآن إلا مدح الراضين، لا إيجاب ذلك وهذا في الرضا بما يفعله الرب بعبد من المصائب كالمرض والفقر والزلازل. ٤١/١٠
- ٥٢ - وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب وهو من الإيمان. ٤١/١٠
- ٥٣ - وأما الرضا بالمنهيات من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها كما لا تشرع محبتها، فإن الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها وإن كان قد قدرها وقضاها. ٤٢/١٠
- ٥٤ - وقالت طائفة ترضى من جهة كونها مضافة إلى الله خلقاً وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلاً وكسباً. وهذا القول لا ينافي الذي قبله بل هما يعودان إلى أصل واحد. وهو سبحانه إنما

قدر الأشياء لحكمة فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة. إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان يجب من أحدهما ويكره من الآخر كما في الحديث الصحيح: {ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه}. ٤٢/١٠

٥٥- ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب لواء الحمد وأمتهم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء. ٤٣/١٠

٥٦- قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها. ٤٥/١٠

٥٧- والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب: أن يتوب فيتوب الله عليه فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. أو يستغفر فيغفر له. أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات. أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حيا وميتا. أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به. أو يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. أو يتلى الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه. أو يتلى في البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه. أو يتلى في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه. أو يرحمه أرحم الراحمين. فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم {يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه}. ٤٥/١٠

٥٨- إذا كان القضاء مع الصبر خيرا له فكيف مع الرضا، ولهذا جاء في الحديث {المصاب من حرم الثواب}. ٤٦/١٠

٥٩- لم يؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه فقد يكون في مضرة لكنه يعفى عنه إذا لم يقتزن به ما يكرهه الله. ٤٦/١٠

٦٠- البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب وذلك لا ينافي الرضا؛ بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه وبهذا يعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال: {إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء}. ٤٧/١٠

٦١- محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده؛ بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان

والدين؛ فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة: إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة.
٤٨/١٠

٦٢- إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه. قال تعالى: {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين} {ألا لله الدين الخالص} والسورة كلها عامتها في هذا المعنى. ٤٩/١٠

٦٣- أن سلطان الشيطان وإغوائه إنما هو لغير المخلصين. ٥٠/١٠

٦٤- {قل يا أيها الكافرون} فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة. ٥٤/١٠

٦٥- {قل هو الله أحد} فمتضمنة للتوحيد القولي العملي. ٥٤/١٠

٦٦- فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة إلا وفيه نوع من الشرك العملي؛ إذ أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه أو بينه وبين المعدومات كما يسوي المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التي لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال. ٥٥/١٠

٦٧- واليهود كثيرا ما يعدلون الخالق بال مخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التي يجب تنزيهه عنها وهي من صفات خلقه، والنصارى كثيرا ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا في المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الإلهية ويجوزون له ما لا يصلح إلا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. ٥٥/١٠

٦٨- والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته؛ فال محبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا والمعظم الذي لا يجب لا يكون معبودا. ٥٦/١٠

٦٩- والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة. وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد. والجهاد دليل المحبة الكاملة. قال تعالى: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم}.
٥٧/١٠

٧٠- المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض محبوبه ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه ويبغض لبغضه ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه فهو موافق له في ذلك. وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويبغض لبغضهم إذ هم إنما يرضون لرضاه ويبغضون لما

يغضب له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال: {لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك}. ٥٨/١٠

٧١- إذا كان السبب الذي به زوال العقل محظورا لم يكن السكران معذورا؛ وإن كان لا يحكم

بكفره في أصح القولين كما لا يقع طلاقه في أصح القولين. ٦٠/١٠

٧٢- فمن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ولا بد أن يحب ما يحبه

من جهادهم. ٦٠/١٠

٧٣- والمحبة التامة لا يؤثر فيه لوم اللائم وعدل العاذل؛ بل ذلك يغريه بملازمة المحبة كما قد قال

أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب

الله ويرضاه من جهاد أعدائه. فإن الملام على ذلك كثير. وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك

ما أحبه فهو لوم بحق وليس من المحمود الصبر على هذا الملام بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي

في الباطل. ٦١/١٠

٧٤- أن اللجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله. ٦٣/١٠

٧٥- عمل الحي بغير حب ولا إرادة أصلا فهذا ممتنع وإن تخيله بعض الغالطين من النساك.

٦٣/١٠

٧٦- فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عن حب وبغض وإرادة. ٦٣/١٠

٧٧- والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون وأئمة

التصوف أن الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية؛ بل هي أكمل محبة فإنها كما قال تعالى:

{والذين آمنوا أشد حبا لله} وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية. وأنكرت

الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب وأنه

لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن

درهم. ٦٦/١٠

٧٨- أن الخلة أخص من مطلق المحبة، بحيث هي من كمالها وتخللها المحب حتى يكون المحبوب بها

محبوبا لذاته لا لشيء آخر. إذ المحبوب لشيء غيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير ومن كمالها لا

تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب. فالخلة تنافي المزاحمة وتقدم

الغير، بحيث يكون المحبوب محبوبا لذاته محبة لا يزاحمه فيها غيره وهذه محبة لا تصلح إلا لله فلا يجوز

أن يشركه غيره فيما يستحقه من المحبة وهو محبوب لذاته، وكل ما يحب غيره إذا كان محبوبا بحق فإنما

يجب لأجله، وكل ما أحب لغيره فمحبته باطلة، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى.

وإذا كانت الخلة كذلك فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوبا لذاته ينكر مخالته. وكذلك أيضا إن أنكر محبته لأحد من عباده فهو ينكر أن يتخذه خليلا بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعباد. ٦٨/١٠

٧٩- محبة القلب للبشر على طبقات. أحدها: العلاقة وهو تعلق القلب بالمحبوب. ثم الصباية وهو انصباب القلب إليه. ثم الغرام وهو الحب اللازم. ثم العشق وآخر المراتب هو التتيم وهو التعبد للمحبوب والتميم المعبود وتيم الله عبد الله فإن المحب يبقى ذاكرة معبدا مذلا لمحبوبه. ٧٠/١٠

٨٠- فالجواز لا يطلق إلا بقريئة تبين المراد. ومعلوم أن ليس في كتاب الله وسنة رسوله ما ينفي أن يكون الله محبوبا وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال لا في الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا في العقل أيضا. ٧١/١٠

٨١- فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يحب ولا يحب كما أطلق إمامهم الجعد بن درهم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازا بل هي حقيقة. ٧١/١٠

٨٢- أن محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له. ٧١/١٠

٨٣- فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازا؛ فحمل الكلام عليه تحريف محض أيضا. ٧٢/١٠

٨٤- من القواعد الكبار: أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوبا مرادا لذاته، كما لا يجوز أن يكون غير الله موجودا بذاته، بل لا رب إلا الله ولا إله إلا هو المعبود الذي يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته كمال المحبة والتعظيم. ٧٢/١٠

٨٥- فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس في محباتها ومراداتها ما تطمئن إليه وتنتهي إليه إلا الله وحده، وأن كل ما أحبه المحبوب من مطعم وملبوس ومنظور ومسموع وملمس يجد من نفسه أن قلبه يطلب شيئا سواه ويجب أمرا غيره يتألهه ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس. ولهذا قال الله تعالى في كتابه: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب}. ٧٢/١٠

٨٦- اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مآثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه أن أعظم الوصايا أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن. وإنكار ذلك هو مأخوذ عن

المشركين والصابئين أعداء إبراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف ومتكلم ومتفقه ومبتدع أخذه عن هؤلاء؛ وظهر ذلك في القرامطة الباطنية من الإسماعيلية. ٧٣/١٠

٨٧- قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب وإن لم يكن ذلك موجودا وعلى أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر وقد قال الله تعالى: {والله لا يحب الفساد} وقال تعالى {ولا يرضى لعباده الكفر}. والمقصود هنا إنما هو ذكر محبة العباد لإلههم. وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك وكانوا يركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية كالعرفان الإيماني والسمع الفرقاني قال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} إلى آخر السورة. ٧٥/١٠

٨٨- لما طال الأمد صار في طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة. وصار في بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من سماع الحديث كالتغيير وسماع المكاء والتصدية فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب ما فيه من الحب بحيث يصلح لمحبة الأوثان والصلبان والإخوان والأوطان والمردان والنسوان كما يصلح لمحبة الرحمن. ٧٦/١٠

٨٩- والذي عليه محققوا المشايخ أنه كما قال الجنيد رحمه الله: من تكلف السماع فتن به، ومن صادفه السماع استراح به. ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث ولا يؤمر به ولا يتخذ ذلك دينا وقربة، فإن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه الله. ٧٦/١٠

٩٠- لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم {خير القرون قرني الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم} لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن ولا في العراق ولا في مصر ولا في خراسان أحد من أهل الخير والدين يجتمع على السماع المبتدع لصالح القلوب، ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره حتى عدّه الشافعي من إحداث الزنادقة حين قال: خلفت ببغداد شيئا أحدثه الزنادقة يسمونه التعبير يصدون به الناس عن القرآن وأما ما لم يقصده الإنسان من الاستماع فلا يترتب عليه لا نهي ولا ذم باتفاق الأئمة؛ ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع فالمستمع للقرآن يثاب عليه والسماع له من غير قصد وإرادة لا يثاب على ذلك إذ الأعمال بالنيات. وكذلك ما ينهى عن استماعه من الملاهي لو سمعه السامع

بدون قصده لم يضره ذلك فلو سمع السامع بيتا يناسب بعض حاله فحرك ساكنه المحمود وأزعج قاطنه المحبوب أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن هذا مما ينهى عنه وكان المحمود الحسن حركة قلبه التي يحبها الله ورسوله إلى محبته التي تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله. ٧٧/١٠

٩١- كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون. ٨٠/١٠

٩٢- ولهذا السماع من المواجيد العظيمة والأذواق الكريمة ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة ما لا يتسع له خطاب ولا يحويه كتاب كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان. ٨١/١٠

٩٣- وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم بجانب من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية. ٨٢/١٠

٩٤- كثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ولا غضب لله وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة. ٨٣/١٠

٩٥- وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ولها أصلان: أحدهما: وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها والله سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة فإنه المتفضل بجميع النعم وإن جرت بواسطة. ٨٤/١٠

٩٦- المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه. وهذا ليس بمذموم بل محمود. وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم {أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهلي بجلي} والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه. ٨٤/١٠

٩٧- قالوا: إن الحمد لله على نوعين: حمد هو شكر وذلك لا يكون إلا على نعمته. وحمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه فكذلك الحب. ٨٤/١٠

٩٨ - الأصل الثاني فيه: هو محبته لما هو له أهل وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسمائه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته إذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ولهذا استحق أن يكون محمودا على كل حال ويستحق أن يحمد على السراء والضراء وهذا أعلى وأكمل وهذا حب الخاصة. ٨٥/١٠

٩٩ - ومما ينبغي التفطن له أنه لا يجوز أن يظن في باب محبة الله تعالى ما يظن في محبة غيره مما هو من جنس التجني والمجرر والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس حتى يتمثلون في حبه بجنس ما يتمثلون به في حب من يصد ويقطع بغير ذنب أو يبعد من يتقرب إليه وإن غلط في ذلك من غلط من المصنفين في رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم إقامة الحجة على الله بل الله الحجة البالغة. ٨٦/١٠

١٠٠ - فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا إلى التوبة والاستغفار. ٨٨/١٠

١٠١ - وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه أحد غيره فقال تعالى {إذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا* فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}. ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال الله تعالى: {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير* ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير* وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا}. ٨٩/١٠

١٠٢ - مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار؛ فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب. كما فسر مجاهد وقتادة قوله: {في قلوبهم مرض} أي شك. وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله: {فيطمع الذي في قلبه مرض}. ٩٣/١٠

١٠٣ - مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه. ٩٤/١٠

١٠٤ - فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض. والقرآن شفاء لما في الصدور ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البيئات

ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينمي ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن. ٩٥/١٠

١٠٥ - القلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا. ٩٦/١٠

١٠٦ - والتركية جعل الشيء زكيا: إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخير كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس قال تعالى: {فلا تزكوا أنفسكم} أي تحبوا بركاتها وهذا غير قوله: {قد أفلح من زكاه} ولهذا قال: {هو أعلم بمن اتقى} وكان اسم زينب برة فقيل تزكي نفسها فسامها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب. ٩٧/١٠

١٠٧ - جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظلما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه؛ بل ظلمها؛ فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر. قال تعالى: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت}. ٩٨/١٠

١٠٨ - قال بعض السلف: إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق. ٩٨/١٠

١٠٩ - قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تحف أحدا، أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب. وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى: {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}. لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع. ١٠٠/١٠

- ١١٠ - حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ولهذا قال تعالى: {ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء}. فشبهم بالغنم الذي ينعق بما الراعي وهي لا تسمع إلا نداء. ١٠٤/١٠
- ١١١ - المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق والمنافقون كثيرون في كل زمان والمنافقون في الدرك الأسفل من النار. ١٠٥/١٠
- ١١٢ - الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر وإن كان معه إيمان. ١٠٥/١٠
- ١١٣ - وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه. ١٠٦/١٠
- ١١٤ - القرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص به كل عبد ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم. والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله. ١٠٧/١٠
- ١١٥ - فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه. ١٠٧/١٠
- ١١٦ - والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين. قال سهل بن عبد الله التستري ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. ١٠٨/١٠
- ١١٧ - فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة. ١٠٩/١٠
- ١١٨ - والحياة مشتق من الحياة؛ فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم {الحياء من الإيمان}. ١٠٩/١٠
- ١١٩ - فإن الحي يدفع ما يؤذيه؛ بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة فإذا كان وقحا يابساً صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام بخلاف الأرض

الخضرة. ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبح بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك. فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها. ١٠٩/١٠

١٢٠- وقال تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء} مع أنهم موتى داخلون في قوله: {كل نفس ذائقة الموت} وفي قوله: {إنك ميت وإنهم ميتون} وقوله: {وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم} فالموت المثبت غير الموت المنفي. المثبت هو فراق الروح البدن والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن. وهذا كما أن النوم أخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وإن كانت الحياة موجودة فيهما. ١١٠/١٠

١٢١- ومن أمراض القلوب الحسد كما قال بعضهم في حده: إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء فلا يجوز أن يكون الفاضل حسودا؛ لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل وقد قال طائفة من الناس: إنه تمني زوال النعمة عن المحسود وإن لم يصير للحاسد مثلها بخلاف الغبطة فإنه تمني مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط. والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان: أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها؛ لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض باق؛ فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود. والحاسد ليس له غرض في شيء معين؛ لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع. ولهذا قال من قال: إنه تمني زوال النعمة فإن من كره النعمة على غيره تمني زوالها بقلبه. والنوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم حسدا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: {لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق}. ١١١/١٠

١٢٢- فإن قيل: إذا لم سمي حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يجب ذلك فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدا؛ لأنه كراهة تتبعها محبة. ١١٣/١٠

١٢٣ - من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء. ١١٣/١٠

١٢٤ - يتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب كلاهما يطلب أن يأخذه وذلك لكرهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر والتنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود في الخير. ١١٣/١٠

١٢٥ - والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم فلهذا لم يذكره، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال؛ بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهم في العادة عدو من خارج فإن قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه. فذلك أفضل لدرجتهما وكذلك لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم المصلي والصائم والحاج؛ لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق. والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة وإلا فالعامل لا يحسد في العادة ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيرا ولهذا يوجد بين أهل لعلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا. ١١٤/١٠

١٢٦ - كان الناس يعظمون دار العباس كان عبد الله يعلم الناس وأخوه يطعم الناس فكانوا يعظمون على ذلك. ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال: هذا والله الشرف أو نحو ذلك. هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نafs أبا بكر رضي الله عنه الإنفاق. ١١٦/١٠

١٢٧ - ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة؛ لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه وهو أنه حال من المنافسة مطلقا لا ينظر إلى حال غيره. ١١٧/١٠

١٢٨ - فقول عبد الله بن عمرو له: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطق، يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد. ١١٩/١٠

١٢٩ - وقد أودى النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبيرا اختياريا، فإنه إنما يؤدي لئلا يفعل ما يفعله باختياره وكان هذا أعظم من صبر يوسف: لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه طلب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه وأهون ما عوقب به الحبس، فإن المشركين

حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويجبسونه هو وأصحابه عن ذلك ولم يكن أحد يهاجر إلا سرا إلا عمر بن الخطاب ونحوه فكانوا قد ألقواهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعه منهم عن ذلك وحبسوه. فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة الله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه وهذا أشرف النوعين وأهلها أعظم درجة وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة الله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح. ١٢٢/١٠

١٣٠ - الحسد مرض من أمراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يديه والكريم يخفيه. وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال ما أنساك إخوة يوسف لا أبالك! ولكن عمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولسانا. فمن وجد في نفسه حسدا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر. فيكره ذلك من نفسه وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود فلا يعينون من ظلمه ولكنهم أيضا لا يقومون بما يجب من حقه بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك؛ لا معتدون عليه وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضا في مواضع ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب. ١٢٤/١٠

١٣١ - الحسد يقع كثيرا بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطا من ذلك وفات الآخر؛ ويكون بين النظراء لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه. ١٢٦/١٠

١٣٢ - قيل أول ذنب عصي الله به ثلاثة: الحرص والكبر والحسد. فالحرص من آدم، والكبر من إبليس، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل، وفي الحديث {ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة. وسأحدثكم بما يخرج من ذلك إذا حسدت فلا تبغض وإذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض}. ١٢٦/١٠

١٣٣ - العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملاسة وسماعا، بل ويضره التفكير فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب، وإن أعطي مشتهاه قوي مرضه وكان سببا لزيادة الألم. وفي الحديث: {إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب} وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الإمام أحمد في كتاب الزهد {يقول الله

- تعالى: إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوائهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى}. ١٣٠/١٠
- ١٣٤- والناس في العشق على قولين: قيل إنه من باب الإرادات وهذا هو المشهور. وقيل: من باب التصورات وأنه فساد في التخيل حيث يتصور المعشوق على ما هو به قال هؤلاء: ولهذا لا يوصف الله بالعشق ولا أنه يعشق؛ لأنه منزه عن ذلك ولا يحمد من يتخيل فيه خيالا فاسدا. ١٣٠/١٠
- ١٣٥- العشق: هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي، والله تعالى محبته لا نهاية لها فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته. ١٣١/١٠
- ١٣٦- وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته محبة تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل ويترك ما يجب كما هو الواقع كثيرا حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة؛ لمحبتة الجديدة وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه مثل أن يخصها بميراث لا تستحقه أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله أو يسرف في الإنفاق عليها أو يملكها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه وهذا في عشق من يباح له وطؤها. فكيف عشق الأجنبية والذكران من العالمين؟ ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه ثم قد تفسد عقله ثم جسمه. ١٣١/١٠
- ١٣٧- من المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عف عن المحرمات نظرا وقولا وعملا وكنتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم إما شكوى إلى المخلوق وإما إظهار فاحشة وإما نوع طلب للمعشوق وصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما في قلبه من ألم العشق كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة؛ فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر {إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} وهكذا مرض الحسد وغيره من أمراض النفوس وإذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فينهاها خشية من الله كان ممن دخل في قوله: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى}* فإن الجنة هي المأوى}. ١٣٣/١٠
- ١٣٨- القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده. ١٣٤/١٠
- ١٣٩- وإذا كان القلب محبا لله وحده مخلصا له الدين لم يبتل بحب غيره أصلا، فضلا أن يبتلى بالعشق. وحيث ابتلي بالعشق فلنقص محبته لله وحده. ولهذا لما كان يوسف محبا لله مخلصا له الدين لم يبتل بذلك بل قال تعالى: {كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين}. وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها. ١٣٥/١٠

١٤٠ - وما يتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه. ١٣٥/١٠.

١٤١ - إذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء وأخوف عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفاً منه وترك المعصية حبا له وخوفاً منه قوي حبه له وخوفه منه فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره. ١٣٦/١٠

١٤٢ - ليكن هجيراه: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بما تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال. ١٣٧/١٠.

١٤٣ - لذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه أعني ألمه ولذته النفسانيتان. ١٤٠/١٠

١٤٤ - مرض القلب وشفائه أعظم من مرض الجسم وشفائه. ١٤١/١٠

١٤٥ - قال يحيى بن عمار: العلوم خمسة: فعلم هو حياة الدنيا. وهو علم التوحيد. وعلم هو غذاء الدين، وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث. وعلم هو دواء الدين، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها كما قال ابن مسعود. وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث وعلم هو هلاك الدين، وهو علم السحر ونحوه. ١٤٥/١٠

١٤٦ - وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجسم من الألم يصح بها الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة. ١٤٧/١٠

١٤٧ - ومن لم يظهر في الدنيا من هذه الأمراض فيؤوب صحيحا، وإلا احتاج أن يظهر منها في الآخرة، فيعذبه الله كالذي اجتمعت فيه أخلاطه ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها ولهذا جاء في الأثر: {إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم {المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها}. ١٤٧/١٠

١٤٨ - العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. ١٤٩/١٠

١٤٩ - أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم. ١٥٠/١٠

١٥٠ - والدين يتضمن معنى الخضوع والذل. يقال: دنته فدان أي: ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي: يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له والعبادة أصل معناها الذل أيضا يقال: طريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتميم. ١٥٢/١٠

١٥١ - ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب ولده وصديقه ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله. وكل ما أحب لغير الله فمحبتة فاسدة وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلا. ١٥٣/١٠

١٥٢ - فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذابا على صاحبه كما قال تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين}. ١٥٥/١٠

١٥٣ - وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر وإبليس معترف بهذه الحقيقة؛ وأهل النار. قال إبليس: {رب فأنظريني إلى يوم يبعثون}. ١٥٦/١٠

١٥٤ - ومن ظن أن الخضر وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله. ١٥٧/١٠

١٥٥ - كان عنوان التوحيد لا إله إلا الله بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده أو يعبد معه إلها آخر، فالإله الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها وبها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله، وأما العبد بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أو أنكره، فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر. وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي التي يحبها ويرضاها ويوالي أهلها ويكرمهم بجنته وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التي من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين. ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض أو في مقام أو حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية. وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون وكثر فيه الاشتباه على

السالكين حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المدعين التحقيق والتوحيد والعرفان ما لا يحصيهم إلا الله الذي يعلم السر والإعلان؛ وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر رحمه الله فيما ذكر عنه فبين أن كثيرا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق؛ والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا للقدر. والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله؛ لكن كثيرا من الرجال غلطوا فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب؛ أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر؛ ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة؛ فيضاهون المشركين الذين قالوا: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء}. وقالوا: {أنظعم من لو يشاء الله أطعمه}. وقالوا: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به ونصبر على موجبيه في المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض والخوف قال تعالى: {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه}. قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

١٥٧/١٠

١٥٦ - وادم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لإبليس وقوم نوح وقوم هود وكل كافر، ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب، فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتبه وهدى، ولكن لآدمه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة، ولهذا قال: فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق، فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدرًا، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا. وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب. ١٦٠/١٠

١٥٧ - فمن شهد الحقيقة الكونية دون الدينية سوى بين هذه الأجناس المختلفة التي فرق الله بينها غاية التفريق حتى يقول به الأمر إلى أن يسوي الله بالأصنام كما قال تعالى عنهم: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين} * إذ نسويكم برب العالمين { بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سواوا الله بكل موجود وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقا لكل موجود إذ جعلوه هو وجود المخلوقات وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد. ١٦٢/١٠

١٥٨ - كل من احتج بالقدر فإنه متناقض فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما فعل؛ فلا بد إذا ظلمه ظالم أو ظلم الناس ظالم وسعى في الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج

ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع الضرر التي لا قوام للناس بها أن يدفع هذا القدر؛ وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوان أمثاله. فيقال له إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك: حجة. وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطردون هذا القول ولا يلتزمون به وإنما هم بحسب آرائهم وأهوائهم؛ كما قال فيهم بعض العلماء. أنت عند الطاعة قدرتي وعند المعصية جبري؛ أي مذهب وافق هواك تمذهبت به. ١٦٤/١٠

١٥٩ - ولا ريب أن المشركين الذين كذبوا الرسل يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله؛ وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمر الله؛ فهؤلاء الأصناف فيهم شبه من المشركين إما أن يتدعوا وإما أن يحتجوا بالقدر وإما أن يجمعوا بين الأمرين. ١٦٧/١٠

١٦٠ - وأصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله واختياره الهوى على اتباع أمر الله فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته. فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح: {ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواها ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار}. وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح {ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً}. وأما أهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه قيل لسفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم فقال أنسيت قوله تعالى {وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم} أو نحو هذا من الكلام فعباد الأصنام يحبون آلهتهم كما قال تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله} وقال: {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله} وقال: {إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} ولهذا يميل هؤلاء إلى سماع الشعر والأصوات التي تهيج المحبة المطلقة التي لا تختص بأهل الإيمان بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب الصليبان ومحب الأوطان ومحب الإخوان ومحب المردان ومحب النسوان. وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة. ١٦٩/١٠

١٦١ - قال الزهري: كان من مضى من سلفنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة. وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق. والعبادة والطاعة

والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلا: أحدهما ألا يعبد إلا الله. والثاني أن يعبد بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع. قال تعالى: {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}.

١٦٢ - قوله: {فاعبده وتوكل عليه} فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله؛ لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها؛ فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونه. ١٧٦/١٠

١٦٣ - فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم. ١٧٦/١٠

١٦٤ - وصف أكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد أخبر أنه أرسل جميع الرسل بذلك. ١٧٧/١٠

١٦٥ - قوله: {تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش} والنقش: إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكة، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس فلا نال المطلوب ولاخلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال وقد وصف ذلك بأنه {إذا أعطي رضي وإذا منع سخط} كما قال تعالى: {ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون} فراضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته. ١٨٠/١٠

١٦٦ - ويقال: الطمع غل في العنق قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل. ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الطمع فقر واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه. وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع به ولا يبق قلبه فقيرا إليه ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به فصار فقيرا إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب في حصوله وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك. ١٨١/١٠

١٦٧ - فالعبد لا بد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيرا إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا إليه. ١٨١/١٠

١٦٨ - مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما أبيحت للضرورة وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد كقوله صلى الله عليه وسلم { لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم } وقوله: { من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسأله يوم القيامة خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه } وقوله: { لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفتح أو دمع موجه أو فقر مدقع } هذا المعنى في الصحيح. وفيه أيضا { لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه } وقال: { ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذ. وما لا فلا تتبعه نفسك } فكره أخذه من سؤال اللسان واستشرف القلب وقال في الحديث الصحيح: { من يستغن يغنه الله؛ ومن يستعفف يعفه الله؛ ومن يتصبر يصبره الله؛ وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر } وأوصى خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا وفي المسند { أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه؛ ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئا } وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم بايعه في طائفة وأسر إليهم كلمة خفية: { أن لا تسألوا الناس شيئا } فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم؛ ولا يقول لأحد ناولني إياه. ١٨٢/١٠

١٦٩ - دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق؛ في غير موضع. كقوله تعالى: { فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب }، { وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: إذا سألت فاسأل الله؛ وإذا استعنت فاستعن بالله } . ١٨٣/١٠

١٧٠ - { فابتغوا عند الله الرزق } ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر؛ كأنه قال لا تبتغوا الرزق إلا عند الله. وقد قال تعالى: { واسألوا الله من فضله } والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه؛ ودفع ما يضره؛ وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله؛ فله أن يسأل الله وإليه يشتكي؛ كما قال يعقوب. ١٨٣/١٠

١٧١ - والله تعالى ذكر في القرآن الحجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل. وقد قيل: إن الحجر الجميل: هو حجر بلا أذى. والصفح الجميل: صفح بلا معاتبة. والصبر الجميل: صبر بغير شكوى إلى المخلوق؛ ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه أن طاوسا كان يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى فما أن أحمد حتى مات. وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل؛ فإن يعقوب قال: { فصبر جميل } وقال: { إنما أشكو بثي وحزني إلى الله } . ١٨٣/١٠

١٧٢ - وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحرية مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى

قلبه عنه. كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له؛ وإعراض قلبه عن الطلب من غير الله، والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله؛ لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق؛ بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه؛ وإما على أهله وأصدقائه؛ وإما على أمواله وذخائره؛ وإما على ساداته وكبرائه؛ كمالكه ومملكه؛ وشيخه ومخدومه وغيرهم؛ ممن هو قد مات أو يموت. قال تعالى: {وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده}. ١٨٤/١٠

١٧٣- وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم؛ وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك؛ وإن كان في الظاهر أميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم؛ فالعقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيرا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد؛ وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها. وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره إليها؛ وعشقه لها؛ وأنه لا يعتاض عنها غيرها. ١٨٥/١٠

١٧٤- فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحا من ذلك مطمئنا بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدا متهما لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب. وعبودية القلب وأسرته هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر ملك الناس. فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى النفس قال النبي صلى الله عليه وسلم {ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس} وهذا لعمرى إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبيا فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه. وهؤلاء من أعظم الناس عذابا وأقلهم ثوابا فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررا عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين. ١٨٦/١٠

١٧٥ - ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا أذ ولا أطيّب، والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحسوب آخر يكون أحب إليه منه أو خوفاً من مكروهه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح؛ أو بالخوف من الضرر قال تعالى في حق يوسف. { كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين }. فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله. ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج. قال تعالى: { إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر } فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه فإن ذكر الله عبادة لله وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها. وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع. ١٨٧/١٠

١٧٦ - وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر. ١٨٩/١٠

١٧٧ - طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان: منها ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حمارة الذي يركبه وبساطه الذي يجلس عليه؛ بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده فيكون هلوفاً إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً ومنها ما لا يحتاج العبد إليه فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها؛ فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها؛ وربما صار معتمداً على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله. ١٨٩/١٠

١٧٨ - فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب؛ فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم الله لا لغيره. ١٩١/١٠

١٧٩ - فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان. ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات. فإذا كان العبد قادرا عليها حصلها. وإن كان عاجزا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل. ١٩٢/١٠

١٨٠ - فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبا إلا باحتمال المكروهات سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل. ١٩٣/١٠

١٨١ - فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية. ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه ومن حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة. وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائما مفتقر إلى حقيقة {إياك نعبد وإياك نستعين}. ١٩٣/١٠

١٨٢ - كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير وكان مستحبا في الأمكنة العالية كالصفا والمروة وإذا علا الإنسان شرفا أو ركب دابة ونحو ذلك وبه يطفأ الحريق وإن عظم وعند الأذان يهرب الشيطان. ١٩٦/١٠

١٨٣ - وإذا كان العبد لغير الله يكون مشركا، وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارا عن عبادة الله. ١٩٧/١٠

١٨٤ - الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارا عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود: مقصود القلب بالقصد الأول فيكون مشتركا بما استعبده من ذلك. ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا به ولا يتوكل إلا عليه

ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا يوالي إلا من والاه الله ولا يعادي إلا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئاً إلا الله ولا يعطي إلا الله ولا يمنع إلا الله. فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك. ١٩٨/١٠

١٨٥ - وقول بعض الناس: إن محمداً حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وظنه أن المحبة فوق الخلقة قول ضعيف، فإن محمداً أيضاً خليل الله كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة المستفيضة. ٢٠٤/١٠

١٨٦ - فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى. ومن قال إن اللذة إدراك الملائم كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء فقد غلط في ذلك غلطاً بيناً؛ فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة فاللذة تتبع النظر إلى الشيء فإذا نظر إليه التذلل فاللذة تتبع النظر ليست نفس النظر وليست هي رؤية الشيء؛ بل تحصل عقيب رؤيته وقال تعالى: { وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين } وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام من فرح وحزن ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب أو الشعور بالمكروه وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن. فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح ما يجده المؤمن الواحد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور. تكميل هذه المحبة وتفريغها ودفع ضدها. فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم. وتفريغها أن يحب المرء لا يحبه إلا الله. ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار. ٢٠٥/١٠

١٨٧ - يغلط من يغلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط لا محبة معه أو أن المحبة فيها انبساط في الأهواء أو إذلال لا تحتمله الربوبية. ٢٠٦/١٠

١٨٨ - ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تناوبه منه بصحة مزاجه. ٢٠٨/١٠

١٨٩ - محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم. وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل. ٢١٠/١٠

١٩٠ - لا يمكن أن يكون العبد محبا لله والله تعالى غير محب له؛ بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له؛ وإن كان جزاء الله لعبده أعظم. كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال: {من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة}. ٢١٢/١٠

١٩١ - والشرك غالب على النفوس. وهو كما جاء في الحديث. {وهو في هذه الأمة أخفى من ديب النمل}. ٢١٤/١٠

١٩٢ - وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له. وإخلاص دينها له كما قال شداد بن أوس: يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية. قيل لأبي داود السجستاني: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة وعن كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه} قال الترمذي حديث حسن صحيح. فبين صلى الله عليه وسلم أن الحرص على المال والشرف في فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم وذلك بين؛ فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء. ٢١٤/١٠

١٩٣ - فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم. أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون. وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن. ومنهم من يموت: كأبي جهير الضيرير. ووزارة بن أوفى قاضي البصرة. ٢٢٠/١٠

١٩٤ - في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: دعوة أخي ذي النون {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} ما دعا بها مكروب إلا فرح الله كربته {سماها دعوة؛ لأنها تتضمن نوعي الدعاء. فقوله: لا إله إلا أنت، اعتراف بتوحيد الإلهية، وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة وهو الله لا إله إلا هو. وقوله: {إني كنت من الظالمين} اعتراف بالذنب وهو يتضمن طلب المغفرة فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب وتارة يسأل بصيغة الخبر إما بوصف حاله وإما بوصف حال المسئول وإما بوصف الحالين. كقول نوح عليه السلام {رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي

وترحمي أكن من الخاسرين { فهذا ليس صيغة طلب وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر. ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة. ٢٤٣/١٠

١٩٥ - قول أيوب عليه السلام { أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين } فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره وهي صيغة خبر تضمنت السؤال. وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه: أنا جائع أنا مريض، حسن أدب في السؤال. وإن كان في قوله أطعمني وداويني ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب طلب جازم من المسئول فذاك فيه إظهار حاله وإخباره على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب. ٢٤٥/١٠

١٩٦ - فصاحب الحوت ومن أشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب؟ فيقال: لأن المقام مقام اعتراف بأن ما أصابني من الشر كان بذني، فأصل الشر هو الذنب، والمقصود دفع الضر والاستغفار جاء بالقصد الثاني، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر؛ لاستشعاره أنه مسيء ظالم وهو الذي أدخل الضر على نفسه فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه ولم يذكر صيغة طلب المغفرة؛ لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني؛ بخلاف كشف الكرب فإنه مقصود له في حال وجوده بالقصد الأول إذ النفس بطبعها تطلب ما هي محتاجة إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر في المستقبل بالقصد الثاني، والمقصود الأول في هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر فهذا مقدم في قصده وإرادته وأبلغ ما ينال به رفع سببه فحاء بما يحصل مقصوده. وهذا يتبين بالكلام على قوله: سبحانك فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي. ٢٤٧/١٠

١٩٧ - والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له. ٢٥١/١٠

١٩٨ - التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال، والحمد إنما يكون على المحاسن. وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام إذ ليس كل معظم محبوبا محمودا ولا كل محبوب محمودا معظما فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار؛ بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار والشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل. ٢٥١/١٠

١٩٩ - أن لفظ الإيمان إنما يستعمل في بعض الأخبار وهو مأخوذ من الأمن كما أن الإقرار مأخوذ من قر فالمؤمن صاحب أمن كما أن المقر صاحب إقرار فلا بد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالما بأن محمدا رسول الله ولم يقتن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافر به. ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء فإن إبليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا بل استكبر عن أمر ربه. ٢٧١/١٠

٢٠٠ - فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقتن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: {اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع}. ٢٧١/١٠

٢٠١ - الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان وأن من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه وهذا من أعظم الجهل شرعا وعقلا. وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر؛ ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك، فإنه من المعلوم أن الإنسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر، فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به وحينئذ فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف: الإيمان قول وعمل. ٢٧٢/١٠

٢٠٢ - وأبو طالب وإن كان عالما بأن محمدا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبهته لله بل كان يحبه لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبته هو الرئاسة؛ فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما. ٢٧٣/١٠

٢٠٣ - فالرياء من باب الإشراك بالخلق والعجب من باب الإشراك بالذات وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله: {إياك نعبد} والمعجب لا يحقق قوله: {وإياك نستعين} فمن حقق قوله: {إياك نعبد} خرج عن الرياء ومن حقق قوله: {وإياك نستعين} خرج عن الإعجاب. ٢٧٧/١٠

٢٠٤ - فإن المكروب همته منصرفة إلى دفع ضره وجلب نفعه فقد يقول لا إله إلا الله مستشعرا أنه لا يكشف الضر غيرك ولا يأتي بالنعمة إلا أنت فهذا مستحضر توحيد الربوبية ومستحضر توحيد السؤال والطلب والتوكل عليه معرض عن توحيد الإلهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو ألا يعبد إلا إياه ولا يعبد إلا بطاعته وطاعة رسوله فمن استشعر هذا في قوله: {لا إله إلا أنت} كان عابدا لله متوكلا عليه وكان ممثلا قوله: {فاعبده وتوكل عليه}. ٢٧٨/١٠

٢٠٥ - في صحيح البخاري أنه قال: {إني والله لا أعطي أحدا ولا أمنع أحدا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت} وهو لم يرد بقوله {لا أعطي أحدا ولا أمنع} أفراد الله بذلك قدرا وكونا فإن جميع المخلوقين يشاركونه في هذا فلا يعطي أحدا ولا يمنع إلا بقضاء الله وقدره؛ وإنما أراد أفراد الله بذلك شرعا ودينا. أي لا أعطي إلا من أمرت بإعطائه ولا أمنع إلا من أمرت بمنعه فأنا مطيع لله في إعطائي ومنعي فهو يقسم الصدقة والفيء والغنائم كما يقسم الموارث بين أهلها؛ لأن الله أمره بهذه القسمة. ولهذا كان المال حيث أضيف إلى الله ورسوله فالمراد به ما يجب أن يصرف في طاعة الله ورسوله ليس المراد به أنه ملك للرسول كما ظنه طائفة من الفقهاء ولا المراد به كونه مملوكا لله خلقا وقدرا؛ فإن جميع الأموال بهذه المثابة. وهذا كقوله: {قل الأنفال لله والرسول}. ٢٧٩/١٠

٢٠٦ - فظن طائفة من الفقهاء أن الإضافة إلى الرسول تقتضي أنه يملكه كما يملك الناس أملاكهم. ثم قال بعضهم: إن غنائم بدر كانت ملكا للرسول. وقال بعضهم: إن الفيء وأربعة أخماسه كان ملكا للرسول. وقال بعضهم: إن الرسول إنما كان يستحق من الخمس خمسة. وقال بعض هؤلاء: وكذلك كان يستحق من خمس الفيء خمسة وهذه الأقوال توجد في كلام طوائف من أصحاب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم وهذا غلط من وجوه: منها: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك هذه الأموال كما يملك الناس أموالهم ولا كما يتصرف الملوك في ملكهم فإن هؤلاء وهؤلاء لهم أن يصرفوا أموالهم في المباحات، فإما أن يكون مالكا له فيصرفه في أغراضه الخاصة، وإما أن يكون ملكا له فيصرفه في مصلحة ملكه وهذه حال النبي الملك كداود وسليمان. قال تعالى: {فامنن أو أمسك بغير حساب} أي أعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك ونبينا كان عبدا رسولا لا يعطي إلا من أمر بإعطائه ولا يمنع إلا من أمر بمنعه فلم يكن يصرف الأموال إلا في عبادة الله وطاعة له، ومنها: أن النبي لا يورث ولو كان ملكا، فإن الأنبياء لا يورثون، فإذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكا كما يملك الناس أموالهم فكيف يكون صفوة الرسل الذي هو عبد رسول مالكا، ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ويصرف سائر المال في طاعة الله لا يستفضله وليست هذه حال الملاك بل المال الذي يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله بمعنى أن الله أمر رسوله أن يصرف ذلك المال في طاعته فتجب طاعته في قسمه كما تجب طاعته في سائر ما يأمر به. ٢٨٠/١٠

٢٠٧ - والأموال التي كان يقسمها النبي صلى الله عليه وسلم على وجهين: منها: ما تعين مستحقه ومصرفه كالموارث. ومنها: ما يحتاج إلى اجتهاده ونظره ورأيه فإن ما أمر الله به منه ما هو محدود بالشرع: كالصلوات الخمس وطواف الأسبوع بالبيت، ومنه ما يرجع في قدره إلى اجتهاد المأمور

فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التي يجبها الله. فمن هذا ما اتفق عليه الناس ومنه ما تنازعوا فيه: كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات: هل هي مقدرة بالشرع؟ أم يرجع فيها إلى العرف فتختلف في قدرها وصفتها باختلاف أحوال الناس؟. وجمهور الفقهاء على القول الثاني وهو الصواب لقول النبي صلى الله عليه وسلم لهند: {خذني ما يكفيك وولدك بالمعروف}. ٢٨٢/١٠

٢٠٨ - نقل عن مالك أنه قال: أكره للرجل أن يقول في دعائه: يا سيدي يا سيدي يا حنان يا حنان ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء؛ ربنا ربنا. ٢٨٥/١٠

٢٠٩ - فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب. وإن سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسنا وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك. إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله وإذا قصد الدعاء دعا باسم الرب ولهذا قال يونس: {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} وقال آدم: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} فإن يونس عليه السلام ذهب مغاضبا وقال تعالى: {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت} وقال تعالى: {فالتقمه الحوت وهو مليم} ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله أن يبدأ بالثناء على ربه والاعتراف بأنه لا إله إلا هو فهو الذي يستحق أن يعبد دون غيره. ٢٨٦/١٠

٢١٠ - وأما آدم عليه السلام فإنه اعترف أولا بذنبه فقال: {ظلمنا أنفسنا} ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به مما يزاحم الإلهية بل ظن صدق الشيطان الذي {قاسمهما إني لكما لمن الناصحين}* فدلاهما بغرور} فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما فكانا في قبول غروره وما أظهر من نصحه حالهما مناسبا لقولهما: {ربنا ظلمنا أنفسنا} لما حصل من التفريط لا لأجل هوى وحظ يزاحم الإلهية وكانا محتاجين إلى أن يريهما ربوية تكمل علمهما وقصدهما. حتى لا يغترا بمثل ذلك فهما يشهدان حاجتهما إلى الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره. ٢٨٧/١٠

٢١١ - فيحتاج العبد أن ينفي عنه شيئين: الآراء الفاسدة والأهواء الفاسدة فيعلم أن الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكمته لا فيما اقتضاه علم العبد وحكمته ويكون هواه تبعا لما أمر الله به فلا يكون له مع أمر الله وحكمه هوى يخالف ذلك. ٢٨٨/١٠

٢١٢ - فمن رأى قوما يستحقون العذاب في ظنه. وقد غفر الله لهم ورحمهم وكره هو ذلك، فهذا إما أن يكون عن إرادة تخالف حكم الله، وإما عن ظن يخالف علم الله والله عليم حكيم. وإذا علمت أنه عليم وأنه حكيم لم يبق لكرهية ما فعله وجه وهذا يكون فيما أمر به وفيما خلف ولم يأمرنا أن نكرهه ونغضب عليه. فأما ما أمرنا بكرهته من الموجودات: كالكفر والفسوق والعصيان

فعلينا أن نطيعه في أمره بخلاف توبته على عباده وإنجائهم من العذاب فإن هذا من مفعولاته التي لم يأمرنا أن نكرهها بل هي مما يجبها فإنه يجب التوابين ويجب المتطهرين. ففكرة هذا من نوع اتباع الإرادة المزاحمة للإلهية. فعلى صاحبها أن يحقق توحيد الإلهية فيقول: لا إله إلا أنت. فعلى أن نحب ما يحب ونرضى ما يرضى ونأمر بما يأمر وننهى عما ينهى. فإذا كان يجب التوابين ويجب المتطهرين فعلى أن نحبهم؛ ولا نأله مراداتنا المخالفة لمحابه. ٢٨٩/١٠

٢١٣- فإن النبي هو المنبأ عن الله والرسول هو الذي أرسله الله تعالى، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين، ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته؟ هذا فيه قولان. والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك. والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى وقالوا: إن هذا لم يثبت ومن علم أنه ثبت: قال هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ولم يلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضا. وقالوا في قوله: {إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته} هو حديث النفس. وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلا ثابتا لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه. ٢٩٠/١٠

٢١٤- الذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقا والرد على من يقول إنه يجوز إقرارهم عليها وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول. وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسى بهم مشروع وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبا ومعلوم أن التأسى بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهبوا عنه ورجعوا عنه كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه. ٢٩٣/١٠

٢١٥- ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح. أو أنها توجب التنفير أو نحو ذلك من الحجج العقلية فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه كما قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة وقال آخر: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. ٢٩٣/١٠

٢١٦- والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجته: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}

وقول نوح: {رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين} وقول الخليل عليه السلام {ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب} وقوله: {والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين} وقول موسى: {أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين* واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك}. ٢٩٦/١٠

٢١٧- وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبا فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار بل قال {كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين} فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء. ٢٩٦/١٠

٢١٨- {ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه} فالهم اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد المهم همان: هم خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم {أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة} وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة، ويوسف صلى الله عليه وسلم هم هما تركه لله ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله. فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها. ٢٩٦/١٠

٢١٩- وقوله: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي} فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن. ٢٩٨/١٠

٢٢٠- غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ورضا الرحمن وزوال كل ما فيه نقص وملام وحصول كل ما فيه رحمة وسلام حتى استقر بهم القرار {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب* سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} فإذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين. ٣٠٠/١٠

٢٢١- وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافرا فأسلم ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل. فإنه من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم؛ بل من عرف الشر وذاقه ثم عرف الخير وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويزدقهما كما ذاقهما؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر فإما أن يقع فيه وإما أن لا

ينكره كما أنكره الذي عرفه. ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية. ٣٠٠/١٠

٢٢٢- وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقا؛ فإن هذا ليس بمطرد بل قد يكون الطبيب أعلم بالأمراض من المرضى والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء الأديان فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس. ولكن المراد أن من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به والنفور عنه والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس. ٣٠٢/١٠

٢٢٣- من دخل مع أهل البدع والفجور ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحا ورزقه الجهاد في سبيل الله فقد يكون بيانه لحالهم وهجره لمساويهم؛ وجهاده لهم أعظم من غيره قال نعيم بن حماد الخزاعي وكان شديدا على الجهمية أنا شديد عليهم؛ لأني كنت منهم. ٣٠٣/١٠

٢٢٤- وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من أشد الناس على الإسلام فلما أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام. ٣٠٣/١٠

٢٢٥- الكتاب والسنة يدل على أن الله يحب التوابين ويفرح بتوبة التائبين سواء كانوا عاملين بأن ما أتوه ذنبا أو لم يكونوا عاملين بذلك. ٣٠٨/١٠

٢٢٦- فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصا فهو غالط غلطا عظيما، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلا. ٣٠٩/١٠

٢٢٧- أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض. ٣١٤/١٠

٢٢٨- وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا، والتارك غير التائب فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضي لعجزه عنه أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه ويدعه لله تعالى؛ لا لرغبة مخلوق ولا لرغبة مخلوق؛ فإن التوبة من أعظم الحسنات؛ والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره. ٣١٨/١٠

٢٢٩- وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه وهذا يأس من رحمة الله ولا يقطع بالمغفرة له فإنه داع دعوة مجردة. ٣١٨/١٠

٢٣٠- وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقول على وجه التوبة أو يدعي أن استغفاره توبة وأنه تائب بهذا الاستغفار فلا ريب أنه مع الإصرار

لا يكون تائباً فإن التوبة والإصرار ضدان: الإصرار يضاد التوبة لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة. ٣١٩/١٠

٢٣١- أن التوبة تصح من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر إذا كان المقتضي للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضي للتوبة من الآخر أو كان المانع من أحدهما أشد وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف. ٣٢٠/١٠

٢٣٢- وأحمد يقول: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام، وكان في المحنة يقول: كيف أقول ما لم يقل؟ واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته في ذلك وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة. وما ذكره من أن الخشية توجب العموم. فجوابه أنه قد يعلم قبح أحد الذنوب دون الآخر، وإنما يتوب مما يعلم قبحه. ٣٢٠/١٠

٢٣٣- تنازع الناس في قوله: {إنما يتقبل الله من المتقين} فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقاً فلم يأت كبيرة، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم المتقين، وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصاً لله موافقاً لأمر الله فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصياً في غيره. ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً في غيره. ٣٢٢/١٠

٢٣٤- الكافر إذا أسلم فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه، وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟ هذا فيه قولان معروفان: أحدهما: يغفر له الجميع لإطلاق قوله صلى الله عليه وسلم {الإسلام يهدم ما كان قبله} رواه مسلم. مع قوله تعالى {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}. والقول الثاني: أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه فإذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر وهذا القول هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص. ٣٢٣/١٠

٢٣٥- أن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عاماً بفعل المأمور وترك المحذور وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محذور. ٣٢٥/١٠

٢٣٦- فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح فما كان لو استحضره لم

يتب منه لم يدخل في التوبة وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملتها. ٣٢٨/١٠

٢٣٧- التوبة المطلقة: وهي أن يتوب توبة مجملة ولا تستلزم التوبة من كل ذنب فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق؛ لكن هذه تصلح أن تكون سببا لغفران المعين. كما تصلح أن تكون سببا لغفران الجميع؛ بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام كما تناولت الذنوب تناولا عاما. وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررا عليه مما فعله من بعض الفواحش فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقا أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة كحب الله ورسوله؛ فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية. ٣٢٨/١٠

٢٣٨- لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق. ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطا بثبوت شروط وانتفاء موانع. ٣٢٩/١٠

٢٣٩- والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك، فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور فعليه أن يتوب دائما. ٣٣٠/١٠

٢٤٠- فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضرر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحدا سواه وتتعلق قلوبهم به لا بغيره فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف أو الجذب أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك لذات بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن. وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقال أو يستحضر تفصيله بال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه ولهذا قال بعض السلف: يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. وقال بعض الشيوخ: إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها فإذا قضيت انصرفت. وفي بعض الإسرائيليات: يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك. وهذا المعنى كثير وهو موجود مذوق محسوس

بالحس الباطن للمؤمن، وما من مؤمن إلا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه، فإن ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه إلا من كان له ذوق وحس بذلك. ٣٣٣/١٠

٢٤١- فإن الاعتبار في القرون الثلاثة بجمهور أهل القرن وهم وسطه وجمهور الصحابة انقضى بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة حتى أنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل وجمهور التابعين بإحسان انقضى في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعي التابعين انقضى في أواخر الدولة الأموية؛ وأوائل الدولة العباسية وصار في ولاية الأمور كثير من الأعاجم وخرج كثير من الأمر عن ولاية العرب وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم وظهر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم {ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يستشهد ويحلف ولا يستحلف} حدث ثلاثة أشياء. الرأي والكلام والتصوف. وحدث التجهم وهو نفي الصفات. وبإزائه التمثيل. فكان جمهور الرأي من الكوفة؛ إذ هو غالب على أهلها مع ما كان فيهم من التشيع الفاحش وكثرة الكذب في الرواية مع أن في خيار أهلها من العلم والصدق والسنة والفقهاء والعبادة أمر عظيم؛ لكن الغرض أن فيها نشأ كثرة الكذب في الرواية، وكثرة الآراء في الفقه، والتشيع في الأصول، وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة. ٣٥٧/١٠

٢٤٢- وكان أهل المدينة أقرب من هؤلاء وهؤلاء في القول والعمل إذ لم ينحرفوا انحراف الطائفتين من الكوفيين والبصريين: هوى ورواية ورأيا وكلاما وسماعا وإن كان في بعضهم نوع انحراف لكن هم أقرب. وأما الشاميون فكان غالبهم مجاهدين وأهل أعمال قلبية أقرب إلى الحال المشروع من صوفية البصريين إذ ذاك. ٣٦٠/١٠

٢٤٣- أن علم النبوة من الإيمان والقرآن؛ وما يتبع ذلك من الفقه والحديث وأعمال القلوب إنما خرجت من الأمصار التي يسكنها جمهور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي الحرامان والعراقان والشام: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وسائر الأمصار تبع. فالقراء السبعة من هذه الأمصار؛ وكذلك أئمة أهل الحديث وأئمة أهل المدينة وأهل البصرة كالزهري ومالك وكقتادة وشعبة ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي وأهل الكوفة فيهم الصادق والكاذب. وأهل الشام لم يكن فيهم كثير كاذب ولا أئمة كبار في القراءة والحديث وكذلك أئمة الفقهاء فمالك عالم أهل المدينة. والثوري وأبو حنيفة وغيرهما من أهل الكوفة. وابن جريج وغيره. من أهل مكة؛ وحماد بن سلمة وحماد بن زيد من أهل البصرة والأوزاعي وطبقته بالشام وقد قيل: إن مالكا إنما احتذى موطأه على كتاب حماد بن سلمة وقيل: إن كتاب ابن جريج قبل ذلك. ثم الشافعي وإن كان أصله مكيًا فإنه تفقه على طريقة أهل الحديث غير متقيد بمصره. وكذلك الإمام أحمد وإن كان أجداده بصريين

فإنه تفقه على طريقة أهل الحديث غير متقيد بالبصريين ولا غيرهم. كما أن عبد الله بن المبارك وإسحاق بن إبراهيم ومحمد بن إسماعيل البخاري وغيرهم من الخراسانيين وكذلك أئمة الزهاد والعباد من هذه الأمصار. ٣٦١/١٠

٢٤٤ - المتقدمون الذين وضعوا طرق الرأي والكلام والتصوف وغير ذلك: كانوا يخلطون ذلك بأصول من الكتاب والسنة والآثار إذ العهد قريب. وأنوار الآثار النبوية بعد فيها ظهور ولها برهان عظيم وإن كان عند بعض الناس قد اختلط نورها بظلمة غيرها. فأما المتأخرون فكثير منهم جرد ما وضعه المتقدمون. مثل من صنف في الكلام من المتأخرين فلم يذكر إلا الأصول المبتدعة وأعرض عن الكتاب والسنة وجعلهما إما فرعين أو آمن بهما مجملا أو خرج به الأمر إلى نوع من الزندقة ومتقدمو المتكلمين خير من متأخريهم. ٣٦٦/١٠

٢٤٥ - من صنف في التصوف والزهد جعل الأصل ما روي عن متأخري الزهاد وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين. ٣٦٧/١٠

٢٤٦ - للزهاد عدة أسماء: يسمون بالشام الجوعية ويسمون بالبصرة الفقرية والفكرية ويسمون بخراسان المغاربة ويسمون أيضا الصوفية والفقراء والنسبة في الصوفية إلى الصوف؛ لأنه غالب لباس الزهاد. وقد قيل هو نسبة إلى صوفة بن مر بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون حول البيت. ٣٦٨/١٠

٢٤٧ - وقد تكلم بهذا الاسم قوم من الأئمة: كأحمد بن حنبل وغيره وقد تكلم به أبو سليمان الداراني وغيره وأما الشافعي فالمنقول عنه ذم الصوفية وكذلك مالك فيما أظن وقد خاطب به أحمد لأبي حمزة الخراساني وليوسف بن الحسين الرازي ولبدر بن أبي بدر المغازلي وقد ذم طريقهم طائفة من أهل العلم ومن العباد أيضا من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة وأهل الحديث والعباد ومدحه آخرون. والتحقيق فيه: أنه مشتمل على الممدوح والمذموم كغيره من الطريق، وأن المذموم منه قد يكون اجتهاديا وقد لا يكون وأنهم في ذلك بمنزلة الفقهاء في الرأي فإنه قد ذم الرأي من العلماء والعباد طوائف كثيرة والقاعدة التي قدمتها تجمع ذلك كله وفي المتسمين بذلك من أولياء الله وصفوته وخيار عباده ما لا يحصى عده. كما في أهل الرأي من أهل العلم والإيمان من لا يحصى عدده إلا الله. ٣٦٩/١٠

٢٤٨ - المحافظة على عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم { كل بدعة ضلالة } متعين وأنه يجب العمل بعمومه، وأن من أخذ يصنف البدع إلى حسن وقبيح ويجعل ذلك ذريعة إلى ألا يحتج بالبدعة

على النهي فقد أخطأ كما يفعل طائفة من المتفهمة والمتكلمة والمتصوفة والمتعبدة؛ إذا نھوا عن العبادات المبتدعة. والكلام في التدين المبتدع ادعوا أن لا بدعة مكروهة إلا ما نھي عنه. ٣٧٠/١٠ - ٢٤٩ وما سمي بدعة وثبت حسنه بأدلة الشرع فأحد الأمرين فيه لازم: إما أن يقال: ليس ببدعة في الدين وإن كان يسمى بدعة من حيث اللغة. كما قال عمر: نعمت البدعة هذه، وإما أن يقال: هذا عام خصت منه هذه الصورة لمعارض راجح كما يبقى فيما عداها على مقتضى العموم كسائر عمومات الكتاب والسنة. ٣٧١/١٠

٢٥٠ - أن ما ثبت قبحه من البدع وغير البدع من المنهي عنه في الكتاب والسنة أو المخالف للكتاب والسنة إذا صدر عن شخص من الأشخاص فقد يكون على وجه يعذر فيه؛ إما لاجتهاد أو تقليد يعذر فيه وإما لعدم قدرته. ٣٧١/١٠

٢٥١ - فإن جهاد الكفار يجب أن يكون مسبوqa بدعوتهم؛ إذ لا عذاب إلا على من بلغته الرسالة وكذلك عقوبة الفساق لا تثبت إلا بعد قيام الحجة. ٣٧٢/١٠

٢٥٢ - أن ما عاد من الذنوب بإضرار الغير في دينه ودنياه فعقوبتنا له في الدنيا أكبر، وأما ما عاد من الذنوب بمضرة الإنسان في نفسه فقد تكون عقوبته في الآخرة أشد وإن كنا نحن لا نعاقبه في الدنيا. وإضرار العبد في دينه ودنياه هو ظلم الناس؛ فالظلم للغير يستحق صاحبه العقوبة في الدنيا لا محالة لكف ظلم الناس بعضهم عن بعض ثم هو نوعان: أحدهما: منع ما يجب لهم من الحقوق وهو التفريط. والثاني: فعل ما يضر به وهو العدوان. ٣٧٣/١٠

٢٥٣ - يعاقب الداعية إلى البدع بما لا يعاقب به الساكت، ويعاقب من أظهر المنكر بما لا يعاقب به من استخفى به، ونمسك عن عقوبة المنافق في الدين وإن كان في الدرك الأسفل من النار. ٣٧٤/١٠

٢٥٤ - من تاب من الكفار والمخارئين وسائر الفساق قبل القدرة عليه سقطت عنه العقوبة التي لحق الله، فإذا أسلم الحربي قبل القدرة عليه عصم دمه وأهله وماله. ٣٧٤/١٠

٢٥٥ - إذا تابوا بعد القدرة لم تسقط العقوبة كلها؛ لأن ذلك يفضي إلى تعطيل الحدود وحصول الفساد؛ ولأن هذه التوبة غير موثوق بها؛ ولهذا إذا أسلم الحربي عند القتال صح إسلامه؛ لأنه أسلم قبل القدرة عليه بخلاف من أسلم بعد الأسر فإنه لا يمنع استرقاقه وإن عصم دمه. ٣٧٤/١٠

٢٥٦ - أن عقوبة الدنيا المشروعة من المجران إلى القتل لا يمنع أن يكون المعاقب عدلاً أو رجلاً صالحاً كما بينت من الفرق بين عقوبة الدنيا المشروعة والمقدورة؛ وبين عقوبة الآخرة. ٣٧٧/١٠

٢٥٧- فما جاء به الكتاب والسنة من الخبر والأمر والنهي وجب اتباعه ولم يلتفت إلى من خالفه كائنا من كان ولم يجز اتباع أحد في خلاف ذلك كائنا من كان كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته. ٣٨٣/١٠

٢٥٨- كل أحد من الناس قد يؤخذ من قوله وأفعاله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما من الأئمة إلا من له أقوال وأفعال لا يتبع عليها مع أنه لا يذم عليها، وأما الأقوال والأفعال التي لم يعلم قطعا مخالفتها للكتاب والسنة بل هي من موارد الاجتهاد التي تنازع فيها أهل العلم والإيمان، فهذه الأمور قد تكون قطعية عند بعض من بين الله له الحق فيها، لكنه لا يمكنه أن يلزم الناس بما بان له ولم يبين لهم. ٣٨٣/١٠

٢٥٩- فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة، لكن لا يتوقف في رد ما خالف الكتاب والسنة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد}. فلا يسوغ الخروج عن موجب العموم والإطلاق في الكتاب والسنة. ٣٨٥/١٠

٢٦٠- المسألة التي تشبه غالبا: وهو أن يظهر من بعض الرجال المجهول الحال أمر مخالف للشرع في الظاهر، ويجوز أن يكون معذورا فيه عذرا شرعيا، مثل وجد خرج فيه عن الشرع لا يدري أهو صادق فيه أم متصنع، وأخذ مال بغير إذن صاحبه في الظاهر، مع تجويز أن يكون علم طيب قلب صاحبه به، فهذا إن قيل: ينكر عليه جاز أن يكون معذورا وإن قيل: لا ينكر عليه، لزم إقرار المجهولين على مخالفة الشرع في الظاهر، فالواجب في مثل هذا أن يخاطب صاحبه أولا برفق ويقال له: هذا في الظاهر منكر، وأما في الباطن فأنت أمين الله على نفسك، فأخبرنا بحالك فيه، أو لا تظهره حيث يكون إظهاره فتنه، وتسلك في ذلك طريقة لا تفضي إلى إقرار المنكرات ولا لوم البراء. والضابط أن من عرف من عاداته الصدق والأمانة أقر على ما لم يعلم أنه كذب وحرام، ومن عرف منه الكذب أو الخيانة لم يقر على المجهول، وأما المجهول فيتوقف فيه. ٣٨٦/١٠

٢٦١- السفر إلى المسجد الحرام فرض وإلى المسجدين الآخرين: مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبيت المقدس مستحب، وكذلك الصدقة منها ما هو فرض ومنها ما هو مستحب. ٣٩٠/١٠

٢٦٢- وهؤلاء غلوا في العبادات بلا فقه فآل الأمر بهم إلى البدعة فقال: {يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما وجدتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة}. فإنهم قد استحلوا دماء المسلمين وكفروا من خالفهم. وجاءت فيهم الأحاديث الصحيحة، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: صح فيهم الحديث من عشرة أوجه وقد أخرجها مسلم في صحيحه وأخرج البخاري قطعة منها. ٣٩٢/١٠

٢٦٣- وأما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحتنه بغار حراء قبل الوحي وهذا خطأ، فإن ما فعله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة إن كان قد شرعه بعد النبوة فنحن مأمورون باتباعه فيه وإلا فلا، وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك إلى غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون، وقد أقام صلوات الله عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة ودخل مكة في عمرة القضاء وعام الفتح أقام بها قريبا من عشرين ليلة وأتاها في حجة الوداع وأقام بها أربع ليال وغار حراء قريب منه ولم يقصده. ٣٩٣/١٠

٢٦٤- وطائفة يجعلون الخلوة أربعين يوما ويعظمون أمر الأربعينية ويحتجون فيها بأن الله تعالى واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وقد روي أن موسى عليه السلام صامها وصام المسيح أيضا أربعين لله تعالى وخوطف بعدها، فيقولون يحصل بعدها الخطاب والتنزل كما يقولون في غار حراء حصل بعده نزول الوحي، وهذا أيضا غلط فإن هذه ليست من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، بل شرعت لموسى عليه السلام كما شرع له السبت والمسلمون لا يسبتون وكما حرم في شرعه أشياء لم تحرم في شرع محمد صلى الله عليه وسلم. فهذا تمسك بشرع منسوخ وذاك تمسك بما كان قبل النبوة. وقد جرب أن من سلك هذه العبادات البدعية أتته الشياطين وحصل له تنزل شيطاني وخطاب شيطاني وبعضهم يطير به شيطانه وأعرف من هؤلاء عددا طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل فنزلت عليهم الشياطين؛ لأنهم خرجوا عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم التي أمروا بها. ٣٩٤/١٠

٢٦٥- فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله الذي أرسل به رسله فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان قال الله تعالى: ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين* وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾. ٣٩٩/١٠

٢٦٦- الاقتصار على الذكر المجرد الشرعي مثل قول: لا إله إلا الله، فهذا قد ينتفع به الإنسان أحيانا، لكن ليس هذا الذكر وحده هو الطريق إلى الله تعالى دون ما عداه، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء، والمفضل في وقته الذي شرع فيه أفضل من الفاضل كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من القراءة، وكذلك الدعاء في آخر الصلاة أفضل من القراءة، ثم قد يفتح على الإنسان في العمل المفضل ما لا يفتح عليه في العمل الفاضل. وقد ييسر عليه هذا دون هذا فيكون هذا أفضل في حقه لعجزه عن الأفضل كالجائع إذا وجد الخبز المفضل متيسرا عليه والفاضل متعسرا عليه فإنه ينتفع بهذا الخبز المفضل، وشبعه واغتداؤه به حينئذ أولى به. ٤٠١/١٠

٢٦٧- فأما الخلوة والعزلة والانفراد المشروع فهو ما كان مأمورا به أمر إيجاب أو استحباب. فالأول كاعتزال الأمور المحرمة ومجانبتها كما قال تعالى: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره} ومنه قوله تعالى عن الخليل: {فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا} وقوله عن أهل الكهف: {وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف} فإن أولئك لم يكونوا في مكان فيه جمعة ولا جماعة ولا من يأمر بشرع نبي فلهذا أووا إلى الكهف وقد قال موسى: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون}. وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع وذلك بالزهد فيه فهو مستحب. ٤٠٤/١٠

٢٦٨- وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل فتخلى في بعض الأماكن مع محافظته على الجمعة والجماعة فهذا حق كما في الصحيحين {أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي الناس أفضل؟ قال: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها يتتبع الموت مظانه، ورجل معتزل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدع الناس إلا من خير}. ٤٠٥/١٠

٢٦٩- وهذه الخلوات قد يقصد أصحابها الأماكن التي ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يصلى فيه الصلوات الخمس؛ إما مساجد مهجورة وإما غير مساجد: مثل الكهوف والغيران التي في الجبال ومثل المقابر لا سيما قبر من يحسن به الظن ومثل المواضع التي يقال إن بها أثر نبي أو رجل صالح ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية. فمنهم من يرى أن صاحب القبر قد جاء إليه وقد مات من سنين كثيرة ويقول: أنا فلان. ٤٠٦/١٠

٢٧٠- والشياطين كثيرا ما يتصورون بصورة الإنس في اليقظة والمنام وقد تأتي لمن لا يعرف فتقول: أنا الشيخ فلان أو العالم فلان وربما قالت: أنا أبو بكر وعمر وربما أتى في اليقظة دون المنام وقال: أنا المسيح أنا موسى أنا محمد وقد جرى مثل ذلك أنواع أعرفها وثم من يصدق بأن الأنبياء يأتون في اليقظة في صورهم وثم شيوخ لهم زهد وعلم وورع ودين يصدقون بمثل هذا. ومن هؤلاء من يظن أنه حين يأتي إلى قبر نبي أن النبي يخرج من قبره في صورته فيكلمه. ٤٠٦/١٠

٢٧١- قال ابن عبد البر لمن ظن ذلك: ويحك أترى هذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؟ فهل في هؤلاء من سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعد الموت وأجابته؟. وقد تنازع الصحابة في أشياء فهلا سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأجابهم وهذه ابنته فاطمة تنازع في ميراثه فهلا سأله فأجابها. ٤٠٧/١٠

٢٧٢- ولا يجوز أن يقال إن هذا مستحب أو مشروع إلا بدليل شرعي، ولا يجوز أن يثبت شرعية بحديث ضعيف، لكن إذا ثبت أن العمل مستحب بدليل شرعي وروي له فضائل بأسانيد ضعيفة

جاز أن تروى إذا لم يعلم أنها كذب، وذلك أن مقادير الثواب غير معلومة، فإذا روي في مقدار الثواب حديث لا يعرف أنه كذب لم يجوز أن يكذب به، وهذا هو الذي كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره يرخصون فيه وفي روايات أحاديث الفضائل. وأما أن يثبتوا أن هذا عمل مستحب مشروع بحديث ضعيف فحاشا لله، كما أنهم إذا عرفوا أن الحديث كذب فإنهم لم يكونوا يستحلون روايته إلا أن يبينوا أنه كذب. ٤٠٨/١٠

٢٧٣- وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على وجه التعبد فهو عبادة يشرع التأسى به فيه. فإذا خصص زمانا أو مكانا بعبادة كان تخصيصه بتلك العبادة سنة، كتخصيصه العشر الأواخر بالاعتكاف فيها وتخصيصه مقام إبراهيم بالصلاة فيه، فالتأسى به أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل؛ لأنه فعل. وذلك إنما يكون بأن يقصد مثلما قصد فإذا سافر لحج أو عمرة أو جهاد وسافرنا كذلك كنا متبعين له، وكذلك إذا ضرب لإقامة حد بخلاف من شاركه في السفر وكان قصده غير قصده أو شاركه في الضرب وكان قصده غير قصده فهذا ليس بمتابع له ولو فعل فعلا بحكم الاتفاق مثل نزوله في السفر بمكان أو أن يفضل في إداوته ماء فيصبه في أصل شجرة أو أن تمشي راحلته في أحد جانبي الطريق ونحو ذلك، فهل يستحب قصد متابعتة في ذلك؟ كان ابن عمر يجب أن يفعل مثل ذلك، وأما الخلفاء الراشدون وجمهور الصحابة فلم يستحبوا ذلك؛ لأن هذا ليس بمتابعة له إذ المتابعة لا بد فيها من القصد، فإذا لم يقصد هو ذلك الفعل بل حصل له بحكم الاتفاق كان في قصده غير متابع له وابن عمر رضي الله عنه يقول: وإن لم يقصده؛ لكن نفس فعله حسن على أي وجه كان فأحب أن أفعل مثله إما لأن ذلك زيادة في محبته وإما لبركة مشابھته له. ومن هذا الباب إخراج التمر في صدقة الفطر لمن ليس ذلك قوته وأحمد قد وافق ابن عمر على مثل ذلك ويرخص في مثل ما فعله ابن عمر وكذلك رخص أحمد في التمسح بمقعده من المنبر اتباعا لابن عمر. وعن أحمد في التمسح بالمنبر روايتان: أشهرهما أنه مكروه كقول الجمهور وأما مالك وغيره من العلماء فيكرهون هذه الأمور وإن فعلها ابن عمر؛ فإن أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم لم يفعلها. فقد ثبت الإسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان في السفر فرآهم يتتابون مكانا يصلون فيه فقال: ما هذا؟ قالوا: مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد وإنما هلك من كان قبلكم بهذا من أدركته فيه الصلاة فليصل فيه وإلا فليمض وهكذا للناس قولان فيما فعله من المباحات على غير وجه القصد، هل متابعتة فيه مباحة فقط أو مستحبة؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره كما قد بسط ذلك في موضعه، ولم يكن ابن عمر ولا غيره من الصحابة يقصدون الأماكن التي كان ينزل

فيها ويبيت فيها مثل بيوت أزواجه ومثل مواضع نزوله في مغازيه وإنما كان الكلام في مشابته في صورة الفعل فقط وإن كان هو لم يقصد التعبد به فأما الأمكنة نفسها فالصحابة متفقون على أنه لا يعظم منها إلا ما عظمه الشارع. ٤٠٩/١٠

٢٧٤- والمعازف هي خمر النفوس تفعل بالنفوس أعظم مما تفعل حميا الكؤوس، فإذا سكروا بالأصوات حل فيهم الشرك ومالوا إلى الفواحش وإلى الظلم فيشركون ويقتلون النفس التي حرم الله ويزنون. وهذه الثلاثة موجودة كثيرا في أهل سماع المعازف. ٤١٧/١٠

٢٧٥- وكنت في أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة فكانوا من خيار أهل هذه الطبقة فبتنا بمكان وأرادوا أن يقيموا سماعا وأن أحضر معهم فامتنعت من ذلك فجعلوا لي مكانا منفردا قعدت فيه فلما سمعوا وحصل الوجد والحال صار الشيخ الكبير يهتف بي في حال وجده ويقول: يا فلان قد جاءك نصيب عظيم تعال خذ نصيبك فقلت في نفسي ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا: أنتم في حل من هذا النصيب فكل نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فأبني لا أكل منه شيئا. وتبين لبعض من كان فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين وكان فيهم من هو سكران بالخمير. ٤١٨/١٠

٢٧٦- فليس النذر سببا لحصول مطلوبه كالدعاء، فإن الدعاء من أعظم الأسباب وكذلك الصدقة وغيرها من العبادات جعلها الله تعالى أسبابا لحصول الخير ودفع الشر إذا فعلها العبد ابتداء. ٤٢١/١٠

٢٧٧- أن الخلطة تارة تكون واجبة أو مستحبة والشخص الواحد قد يكون مأمورا بالمخالطة تارة وبالانفراد تارة. وجماع ذلك: أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات: كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله. وكذلك الاختلاط بهم في الحج. ٤٢٥/١٠

٢٧٨- ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه؛ إما في بيته، كما قال طاوس: نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته. فاختيار المخالطة مطلقا خطأ واختيار الانفراد مطلقا خطأ. وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له في كل حال فهذا يحتاج إلى نظر خاص. ٤٢٦/١٠

- ٢٧٩- الذكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف.
٤٢٧/١٠
- ٢٨٠- المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل. ٤٢٧/١٠
- ٢٨١- والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها؛ بخلاف الأئمة فإنها مأمورة بطاعة أبويها. ٤٢٨/١٠
- ٢٨٢- فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل، وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس ويتبعون أهواءهم، فإن من الناس من يرى أن العمل إذا كان أفضل في حقه لمناسبة له ولكونه أنفع لقلبه وأطوع لربه يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس ويأمرهم بمثل ذلك، والله بعث محمدا بالكتاب والحكمة وجعله رحمة للعباد وهديا لهم يأمر كل إنسان بما هو أصلح له فعلى المسلم أن يكون ناصحا للمسلمين يقصد لكل إنسان ما هو أصلح له. ٤٢٨/١٠
- ٢٨٣- من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد أفضل، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات البدنية كالصلاة والصيام أفضل له والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النبي صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا. ٤٢٨/١٠
- ٢٨٤- ومن ظن أن أحدا من هؤلاء الذين لا يؤدون الواجبات ولا يتركون المحرمات سواء كان عاقلا أو مجنوننا أو مولها أو متولها فمن اعتقد أن أحدا من هؤلاء من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين وجنده الغالبين السابقين المقربين والمقتصددين الذين يرفع الله درجاتهم بالعلم والإيمان مع كونه لا يؤدي الواجبات ولا يترك المحرمات كان المعتقد لولاية مثل هذا كافرا مرتدا عن دين الإسلام غير شاهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو مكذب لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما شهد به؛ لأن محمدا أخبر عن الله أن أولياء الله هم المتقون المؤمنون. ٤٣٢/١٠
- ٢٨٥- والتقوى: أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله يرحو رحمة الله وأن يترك معصية الله على نور من الله يخاف عذاب الله. ٤٣٣/١٠
- ٢٨٦- ومن ولد مجنوننا ثم استمر جنونه لم يصح منه إيمان ولا كفر. وحكم المجنون حكم الطفل إذا كان أبواه مسلمين كان مسلما تبعا لأبويه باتفاق المسلمين، وكذلك إذا كانت أمه مسلمة عند جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد، وكذلك من جن بعد إسلامه يثبت لهم حكم الإسلام تبعا لأبائهم، وكذلك المجنون الذي ولد بين المسلمين يحكم له بالإسلام ظاهرا تبعا لأبويه أو لأهل

الدار كما يحكم بذلك للأطفال، لا لأجل إيمان قام به فأطفال المسلمين ومجانينهم يوم القيامة تبع
لآبائهم وهذا الإسلام لا يوجب له مزية على غيره ولا أن يصير به من أولياء الله المتقين الذين
يتقربون إليه بالفرائض والنوافل. ٤٣٧/١٠

٢٨٧- اتفق العلماء على أنه لا تصح صلاة من زال عقله بأي سبب زال فكيف بالجنون.
٤٣٨/١٠

٢٨٨- نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة مع النعاس الذي يغلط معه النعاس. وقد احتج
العلماء بهذا على أن النعاس لا ينقض الوضوء؛ إذ لو نقض بذلك لبطلت الصلاة أو لوجب الخروج
منها لتجديد الطهارة. ٤٣٨/١٠

٢٨٩- الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحال فلا يصلي أحد عن أحد الفرض لا لعذر ولا لغير
عذر كما لا يؤمن أحد عنه ولا تسقط بحال كما لا يسقط الإيمان؛ بل عليه الصلاة ما دام عقله
حاضرا وهو متمكن من فعل بعض أفعالها فإذا عجز عن جميع الأفعال ولم يقدر على الأقوال فهل
يصلي بتحريك طرفه ويستحضر الأفعال بقلبه؟ فيه قولان للعلماء وإن كان الأظهر أن هذا غير
مشروع. ٤٣٩/١٠

٢٩٠- وليس من السيئات ما يجبط الأعمال الصالحة إلا الردة، كما أنه ليس من الحسنات ما يجبط
جميع السيئات إلا التوبة. ٤٤٠/١٠

٢٩١- الجنون يوجب زوال العقل فيبقى على ما كان عليه من خير وشر لا أنه يزيد ولا ينقصه
لكن جنونه يجرمه الزيادة من الخير كما أنه يمنع عقوبته على الشر. ٤٤١/١٠

٢٩٢- واختلف العلماء هل هم مكلفون في حال زوال عقلهم؟ والأصل مسألة السكران
والمنصوص عن الشافعي وأحمد وغيرهما أنه مكلف حال زوال عقله. وقال كثير من العلماء: ليس
مكلفا وهو أحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد وإحدى الروايتين عن أحمد أن طلاق السكران
لا يقع وهذا أظهر القولين، ولم يقل أحد من العلماء أن هؤلاء الذين زال عقلهم بمثل هذا يكونون
من أولياء الله الموحدين المقربين وحزبه المفلحين. ومن ذكره العلماء من عقلاء المجانين الذين ذكروهم
بخير فهم من القسم الأول الذين كان فيهم خير ثم زالت عقولهم. ومن علامة هؤلاء أنهم إذا حصل
لهم في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان لا بالكفر والبهتان بخلاف
غيرهم ممن يتكلم إذا حصل له نوع إفاقة بالكفر والشرك ويهذي في زوال عقله بالكفر فهذا إنما
يكون كافرا لا مسلما. ٤٤٢/١٠

٢٩٣ - الأنبياء عليهم السلام ينامون وليس فيهم مجنون ولا موله والنبي صلى الله عليه وسلم يجوز عليه النوم والإغماء ولا يجوز عليه الجنون وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه وقد أغمي عليه في مرضه وأما الجنون فقد نزه الله أنبياءه عنه؛ فإنه من أعظم نقائص الإنسان؛ إذ كمال الإنسان بالعقل ولهذا حرم الله إزالة العقل بكل طريق وحرم ما يكون ذريعة إلى إزالة العقل كشرب الخمر؛ فحرم القطرة منها وإن لم تنزل العقل؛ لأنها ذريعة إلى شرب الكثير الذي يزيل العقل فكيف يكون مع هذا زوال العقل سببا أو شرطا أو مقربا إلى ولاية الله كما يظنه كثير من أهل الضلال. ٤٤٤/١٠

٢٩٤ - قال تعالى: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا* الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}. قال سعد بن أبي وقاص وغيره من السلف: نزلت في أصحاب الصوامع والديارات، وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنهم كانوا يتأولونها في الحرورية ونحوهم من أهل البدع والضلالات. ٤٤٨/١٠

٢٩٥ - ومن تكلم في الدين بلا علم كان كاذبا وإن كان لا يتعمد الكذب كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له سبيعة الأسلمية وقد توفي عنها زوجها سعد بن خولة في حجة الوداع فكانت حاملا فوضعت بعد موت زوجها بليال قلائل فقال لها أبو السنابل بن بعكك: ما أنت بناكحة حتى يمضي عليك آخر الأجلين فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {كذب أبو السنابل بل حلت فانكحي}. ٤٤٩/١٠

٢٩٦ - وقد قال أبو بكر وابن مسعود وغيرهما من الصحابة فيما يفتنون فيه باجتهادهم: إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فهو مني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه. فإذا كان خطأ المجتهد المغفور له هو من الشيطان فكيف بمن تكلم بلا اجتهاد يبيح له الكلام في الدين؟ فهذا خطؤه أيضا من الشيطان مع أنه يعاقب عليه إذا لم يتب والمجتهد خطؤه من الشيطان وهو مغفور له؛ كما أن الاحتلام والنسيان وغير ذلك من الشيطان وهو مغفور بخلاف من تكلم بلا اجتهاد يبيح له ذلك فهذا كاذب آثم في ذلك وإن كانت له حسنات في غير ذلك فإن الشيطان ينزل على كل إنسان ويوحى إليه بحسب موافقته له ويتردد بحسب إخلاصه لله وطاعته له قال تعالى: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان} ٤٥٠/١٠

٢٩٧ - وسئل: عمن يقول الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق. هل قوله صحيح؟ فأجاب: إن أراد بذلك الأعمال المشروعة الموافقة للكتاب والسنة كالصلاة والصدقة والجهاد والذكر والقراءة وغير ذلك. فهذا صحيح. وإن أراد إلى الله طريقا مخالفا للكتاب والسنة؛ فهو باطل. ٤٥٤/١٠

٢٩٨- فإن الذي ينبغي أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ويقصد الاستعانة بها على الطاعة فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض. ٤٦٠/١٠

٢٩٩- من فعل المباحات مع الغفلة أو فعل فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة مع أداء الفرائض واجتناب المحارم باطنا وظاهرا فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين. ٤٦٠/١٠

٣٠٠- فما لا يحتاج إليه من المباحات أو يحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو خير منه. ٤٦١/١٠

٣٠١- أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله؛ ويقصد فعل المباح معتقدا أن الله أباحه {والله يجب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته}. ٤٦٢/١٠

٣٠٢- والسلوك سلوكان: سلوك الأبرار أهل اليمين وهو أداء الواجبات، وترك المحرمات باطنا وظاهرا. والثاني: سلوك المقربين السابقين وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان وترك المكروه والمحرم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم {إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه. وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم}. وكلام الشيوخ الكبار: كالشيخ عبد القادر وغيره يشير إلى هذا السلوك؛ ولهذا يأمرهم بما هو مستحب غير واجب وينهون عما هو مكروه غير محرم فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة وبالعام مسلك العامة وطريق الخاصة طريق المقربين ألا يفعل العبد إلا ما أمر به ولا يريد إلا ما أمر الله ورسوله بإرادته وهو ما يحبه الله ويرضاه ويريده إرادة دينية شرعية وإلا فالحوادث كلها مرادة له خلقا وتكوينا. ٤٦٣/١٠

٣٠٣- فإن النبي الملك مثل داود وسليمان قال تعالى: {هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب} قالوا: معناه أعط من شئت وامنع من شئت لا نحاسبك فالنبي الملك يعطي بإرادته لا يعاقب على ذلك كالذي يفعل المباحات بإرادته. وأما العبد الرسول فلا يعطي ولا يمنع إلا بأمر ربه وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية والسابقون المقربون أتباع العبد الرسول والمقتصدون أهل اليمين أتباع النبي الملك وقد يكون للإنسان حال هو فيها حال عن الإرادتين: وهو ألا تكون له إرادة في عطاء ولا منع، لا إرادة دينية هو مأمور بها ولا إرادة نفسانية سواء كان منهيها عنها أو غير منهي عنها بل ما وقع كان مرادا له ومهما فعل به كان مرادا له من غير أن يفعل المأمور به شرعا في ذلك. فهذا بمنزلة من له أموال يعطيها وليس له إرادة في إعطاء معين لا إرادة شرعية ولا إرادة مذمومة؛ بل يعطي كل أحد. فهذا إذا قدر أنه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه ولكنه خفي عليه الإرادة الشرعية في تفصيل أفعاله. فإنه لا يذم على ما فعل ولا يمدح مطلقا. بل يمدح لعدم هواه ولو علم

تفصيل الأمور به وأراد إرادة شرعية لكان أكمل. بل هذا مع القدرة إما واجب وإما مستحب. وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه؛ وإن كان ذلك مباحا له وهو دون من يريد بأمر ربه لا بهواه ولا بالقدر المحض. ٤٦٨/١٠

٣٠٤ - الناس في المباحات من الملك والمال وغير ذلك على ثلاثة أقسام: قوم لا يتصرفون فيها إلا بحكم الأمر الشرعي. وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم. وهو حال العبد الرسول ومن اتبعه في ذلك. وقوم يتصرفون فيها بحكم إرادتهم والشهوة التي ليست محرمة. وهذا حال النبي الملك. وهو حال الأبرار أهل اليمين. وقوم لا يتصرفون بهذا ولا بهذا. أما الأول فلعدم علمهم به. وأما الثاني فلزهدهم فيه؛ بل يتصرفون فيها بحكم القدر المحض اتباعا لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر معرفة الإرادة الشرعية الأمرية وهذا كالترجيح بالقرعة إذا تعذر الترجيح بسبب شرعي معلوم وقد يتصرف هؤلاء في هذا المقام بإلهام يقع في قلوبهم وخطاب. ٤٦٩/١٠

٣٠٥ - أن تخيير ولي الأمر بين القتل والاسترقاق، والمن والفداء ليس تخيير شهوة بل تخيير رأي ومصصلحة فعليه أن يختار الأصلح، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله وإلا فلا. ولما كان هذا يخفى كثيرا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: {إذا حاصرت أهل حصن فسألك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم ولكن أنزلهم على حكمك، وحكم أصحابك} والحاكم الذي ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن يحكم باجتهاده فلما أمر سعدا بما هو الأرضى لله والأحب إليه حكم بحكمه ولو حكم بغير ذلك لنفذ حكمه فإنه حكم باجتهاده وإن لم يكن ذلك هو حكم الله في الباطن. ٤٧٠/١٠

٣٠٦ - إذا تعارضت أدلة المسألة الشرعية عند الناظر المجتهد وعند المقلد المستفتي فإنه لا يرجح شيئا. بل ما جرى به القدر أقروه ولم ينكروه. وتارة يرجح أحدهم: إما بمنام وإما برأي مشير ناصح وإما برؤية المصلحة في أحد الفعلين. وأما الترجيح بمجرد الاختيار بحيث إذا تكافأت عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره. فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام ولكن قاله طائفة من الفقهاء في العامي المستفتي: إنه يخير بين المفتين المختلفين. ٤٧٢/١٠

٣٠٧ - أن طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران في الشريعة رجح بمجرد ذوقه وإرادته فالترجيح بمجرد الإرادة التي لا تستند إلى أمر علمي باطن ولا ظاهر لا يقول به أحد من أئمة العلم والزهد. فائمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا. ولكن من جوز لمجتهد أو مقلد الترجيح بمجرد اختياره وإرادته فهو نظير من شرع للسالك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه. لكن قد يقال: القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بإرادته فهو ترجيح شرعي. ٤٧٢/١٠

٣٠٨- متى حصل ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي والذين أنكروا كون الإلهام طريقاً على الإطلاق أخطئوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق. ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً وألم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى فإلهام مثل هذا دليل في حقه؛ قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة؛ والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه. وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعالى {إن في ذلك لآيات للمتوسمين} وقال عمر بن الخطاب: اقتربوا من أفواه المطيعين؛ واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة. ٤٧٣/١٠

٣٠٩- فالله سبحانه وتعالى فطر عباده على الحنيفية: وهو حب المعروف وبغض المنكر فإذا لم تستحل الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق فإذا كانت الفطرة مقومة بحقيقة الإيمان منورة بنور القرآن وخفي عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة ورأى قلبه يرجح أحد الأمرين كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله وذلك أن الله علم القرآن والإيمان. ٤٧٤/١٠

٣١٠- أن في قلب كل مؤمن واعظ والواعظ الأمر والنهي بتزغيب وترهيب؛ فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ولهذا يقوى أحدهما بالآخر. كما قال تعالى: {نور على نور} قال بعض السلف في الآية: هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر فإذا سمع بالأثر كان نورا على نور. نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل. ٤٧٥/١٠

٣١١- والإلهام في القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر. ٤٧٦/١٠

٣١٢- فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقينا أو ظنا فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى فإنه إلى كشفها أحوج لكن هذا في الغالب لا بد أن يكون كشفاً بدليل وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكنه التعبير عنه وهذا أحد ما فسر به معنى الاستحسان. ٤٧٦/١٠

٣١٣- ليس كل أحد يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، وكثير من الناس يبينها بيانا ناقصا وكثير من أهل الكشف يلقي في قلبه أن هذا الطعام حرام أو أن هذا الرجل كافر أو فاسق من غير دليل

ظاهر وبالعكس قد يلقي في قلبه محبة شخص وأنه ولي لله أو أن هذا المال حلال. وليس المقصود هنا بيان أن هذا وحده دليل على الأحكام الشرعية؛ لكن إن مثل هذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة. فالترجيح بها خير من التسوية بين الأمرين المتناقضين قطعاً فإن التسوية بينهما باطلة قطعاً. ٤٧٧/١٠

٣١٤- إن العمل بالظن الناشئ عن ظاهر أو قياس خير من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما. ٤٧٧/١٠

٣١٥- من قال: أنه ليس في نفس الأمر حق معين بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن في المسألة وليس لأحدهما على الآخر مزية في علم ولا عمل فهؤلاء قد يجوزون أو بعضهم تكافؤ الأدلة ويجعلون الواجب التخيير بين القولين وهؤلاء يقولون ليس على الظن دليل في نفس الأمر؛ وإنما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة كترجيح النفس الغضبية للانتقام والنفس الحليمة للعفو. وهذا القول خطأ؛ فإنه لا بد في نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى. كالكعبة في حق من اشتبهت عليه القبلة والمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى جهة سقط عنه الفرض بالصلاة إليها كالمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى قول فعمل بموجبه كلاهما مطيع لله وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله وله أجر على ذلك؛ وليس مصيباً بمعنى أنه علم الحق المعين؛ فإن ذلك لا يكون إلا واحداً ومصيبه له أجران وهذا في كشف الأنواع التي يكون عليها دليل شرعي لكن قد يخفى على العبد. فإن الشارع بين الأحكام الكلية. ٤٧٧/١٠

٣١٦- فقد يلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين وحال هذا الشخص المعين وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره. وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب ليس فيها مخالفة لشرع الله تعالى؛ فإنه لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله. ٤٧٩/١٠

٣١٧- لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله لكن فيها علم حال ذلك المعين بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن له وغيره لم يعلم، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها لعلمه بأنه أتى بها هدية له ونحو ذلك. ومثل هذا كثير عند أهل الإلهام الصحيح. ٤٧٩/١٠

٣١٨- وقال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه ويخالفه إذا خالف هواه فإذا أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحق وتعاقب على ما خالفته. وهو كما قال رضي الله عنه لأنه في الموضوعين إنما قصد اتباع هواه لم يعمل لله. ٤٨٠/١٠

٣١٩ - ما لا يحبّه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله كالأفعال التي لا تكليف فيها مثل أفعال النائم والمجنون فهذا إذا كان الله لا يحبها ويرضاها ولا يكرهها ويذمها فالمؤمن أيضا لا ينبغي أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها. ٤٨٢/١٠

٣٢٠ - والرضا بالقضاء ثلاثة أنواع: أحدها الرضا بالطاعات؛ فهذا طاعة مأمور بها. والثاني: الرضا بالمصائب فهذا مأمور به: إما مستحب وإما واجب. والثالث: الكفر والفسوق والعصيان فهذا لا يؤمر بالرضا به بل يؤمر ببغضه وسخطه فإن الله لا يحبّه ولا يرضاه. ٤٨٢/١٠

٣٢١ - وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله إذ له الحمد على كل حال ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خلق لأجلها ما خلق وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات فحيث انتفى الأمر الشرعي أو خفي الأمر الشرعي لا يكون الامتثال والرضا والمحبة كما يكون في الأمر الشرعي وإن كان ذلك مقدورا. وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلا عن عامتهم ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له. ٤٨٤/١٠

٣٢٢ - فكما أن طريق العلم لا بد فيه من العلم النبوي الشرعي بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية ويكون علمك بها مطابقا لما أخبرت به الرسل وإلا فلا ينفعك أي معلوم علمته ولا أي شيء اعتقدته فيما أخبرت به الرسل بل لا بد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فكذلك الإرادة لا بد فيها من تعيين المراد وهو الله والطريق إليه وهو ما أمرت به الرسل. فلا بد أن تعبد الله، وتكون عبادتك إياه بما شرع على ألسنة رسله إذ لا بد من تصديق الرسول فيما أخبر علما ولا بد من طاعته فيما أمر عملا. ٤٨٦/١٠

٣٢٣ - والعالم الفاجر يشبه اليهود. والعابد الجاهل يشبه النصارى. ومن أهل العلم من فيه شيء من الأول ومن أهل العبادة من فيه شيء من الثاني. ٥٠١/١٠

٣٢٤ - من الناس من تغلب عليه طريقة الزهد في إرادة نفسه فيزهد في موجب الشهوة والغضب كما يفعل ذلك من يفعله من عباد المشركين وأهل الكتاب كالرهبان وأشباههم وهؤلاء يرون الجهاد نقصا لما فيه من قتل النفوس وسي الذرية وأخذ الأموال ويرون أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود لأنه جرى على يديه سفك الدماء. ومنهم من لا يرى ذبح شيء من الحيوان كما عليه البراهمة ومنهم من لا يحرم ذلك لكنه هو يتقرب إلى الله بأنه لا يذبح حيوانا ولا يأكل لحمه ولا ينكح النساء ويقول مادحه: فلان ما نكح ولا ذبح. ٥١٠/١٠

٣٢٥- وتام الورع أن يعم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبنها على تحصيل
المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة
الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات. ويرى ذلك من الورع. ٥١٢/١٠

٣٢٦- الفعل المعين الذي يقال هو مباح إما أن تكون مصلحته راجحة للعبد لاستعانتة به على
طاعته ولحسن نيته فهذا يصير أيضا محبوبا راجح الوجود بهذا الاعتبار وإما أن يكون مفوتا للعبد ما
هو أفضل له كالمباح الذي يشغله عن مستحب فهذا عدمه خير له. والسالك المتقرب إلى الله
بالنوافل بعد الفرائض لا يكون المباح المعين في حقه مستوي الطرفين فإنه إذا لم يستعن به على
طاعته كان تركه وفعل الطاعة مكانه خيرا له وإنما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشتغل
بمباح مثله. فيقال: لا فرق بين هذا وهذا فهذا يصلح للأبرار أهل اليمين الذين يتقربون إلى الله
بالفرائض كأداء الواجبات وترك المحرمات ويشغلون مع ذلك بمباحات. فهؤلاء قد يكون المباح
المعين يستوي وجوده وعدمه في حقهم إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر ولا سبيل إلى أن
تترك النفس فعلا إن لم تشتغل بفعل آخر يصاد الأول؛ إذ لا تكون معطلة عن جميع الحركات
والسكنات. ومن هذا أنكر الكعبي المباح في الشريعة لأن كل مباح فهو يشتغل به عن محرم، وترك
المحرم واجب ولا يمكنه تركه إلا أن يشتغل بضده وهذا المباح ضده، والأمر بالشيء نهي عن ضده،
والنهي عنه أمر بضده إن لم يكن له إلا ضد واحد وإلا فهو أمر بأحد أضداده فأمر بتركه ضد
كان واجبا من باب الواجب المخير. وسؤال الكعبي هذا أشكل على كثير من النظار فمنهم من
اعترف بالعجز عن جوابه: كأبي الحسن الأمدي، وقواه طائفة بناء على أن النهي عن الشيء أمر
بضده كأبي المعالي ومنهم من قال: هذا فيما إذا كانت أضداده محصورة فأما ما ليست أضداده
محصورة فلا يكون النهي عنه أمرا بأحد كما يفرق بين الواجب المطلق، والواجب المخير. فيقال
في المخير: هو أمر بأحد الثلاثة ويقال في المطلق هو أمر بالقدر المشترك. وجدنا أبو البركات يميل
إلى هذا. ٥٢٩/١٠

٣٢٧- أن قولنا: الأمر بالشيء نهي عن ضده. وأضداده والنهي عنه أمر بضده أو بأحد أضداده
من جنس قولنا: الأمر بالشيء أمر بلوازمه وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والنهي عن
الشيء نهي عما لا يتم اجتنابه إلا به. فإن وجود المأمور يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده، بل
وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجوده وانتفاء أضداده وعدم النهي عنه؛ بل وعدم كل شيء
يستلزم عدم ملزوماته وإذا كان لا يعدم إلا بضد يخلقه كالأكوان فلا بد عند عدمه من وجود بعض
أضداده فهذا حق في نفسه؛ لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود وإن لم يكن مقصوده

الأمر. والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصدا وما يلزمه في الوجود. فالأول هو الذي يذم ويعاقب على تركه بخلاف الثاني فإن من أمر بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيدا فعليه أن يسعى من المكان البعيد، والقريب يسعى من المكان القريب فقط تلك المسافات من لوازم المأمور به ومع هذا فإذا ترك هذان الجمعة والحج لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب بل ذلك بالعكس أولى مع أن ثواب البعيد أعظم فلو كانت اللوازم مقصودة للأمر لكان يعاقب بتركها فكأن يكون عقوبة البعيد أعظم وهذا باطل قطعاً. وهكذا إذا فعل المأمور به فإنه لا بد من ترك أضداده، لكن ترك الأضداد هو من لوازم فعل المأمور به ليس مقصوداً للأمر بحيث إنه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التي اشتغل بها وكذلك المنهي عنه مقصود الناهي عدمه؛ ليس مقصوده فعل شيء من أضداده وإذا تركه متلبساً بضد له كان ذلك من ضرورة الترك. وعلى هذا إذا ترك حراماً بحرام آخر فإنه يعاقب على الثاني ولا يقال فعل واجباً وهو ترك الأول؛ لأن المقصود عدم الأول، فالمباح الذي اشتغل به عن محرم لم يؤمر به ولا بامتناله أمراً مقصوداً؛ لكن نهي عن الحرام ومن ضرورة ترك المنهي عنه الاشتغال بضد من أضداده فذاك يقع لازماً لترك المنهي عنه فليس هو الواجب المحدود بقولنا الواجب ما يذم تاركه ويعاقب تاركه. ٥٣١/١٠

٣٢٨- فقولنا: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أو يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب يتضمن إيجاب اللوازم. والفرق ثابت بين الواجب الأول والثاني. فإن الأول يذم تاركه ويعاقب، والثاني واجب وقوعاً أي لا يحصل إلا به ويؤمر به أمراً بالوسائل ويثاب عليه لكن العقوبة ليست على تركه ومن هذا الباب إذا اشتبهت الميتة بالمذكي فإن المحرم الذي يعاقب على فعله أحدهما بحيث إذا أكلهما جميعاً لم يعاقب عقوبة من أكل ميتتين بل عقوبة من أكل ميتة واحدة، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل. فقول من قال: كلاهما محرم صحيح بهذا الاعتبار؛ وقول من قال: المحرم في نفس الأمر أحدهما صحيح أيضاً بذلك الاعتبار وهذا نظير قول من قال: يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب. ٥٣٢/١٠

٣٢٩- فإن الوجوب والحرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر بل نوع آخر حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطنها يعتقد حل وطء إحداها وتحريم وطء الأخرى كان ولده من مملوكته ثابتاً نسبه بخلاف الأخرى ولو قدرنا أنها اشتبهت بأجنبية وتزوج إحداها فحد مثلاً ثم تزوج الأخرى لم يجد حدين مع أنه لا حد في ذلك لجواز أن تكون المنكوحه هي الأجنبية. وبهذا تنحل شبهة الكعبي. فإن المحرم تركه مقصود، وأما الاشتغال بضد من أضداده فهو وسيلة؛ فإذا قيل المباح واجب بمعنى وجوب الوسائل أي قد يتوسل به إلى فعل واجب وترك محرم فهذا حق. ٥٣٣/١٠

٣٣٠- فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك المحرم مثل من يشتغل بالنظر إلى امرأته ووطنها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطنها أو يأكل طعاما حلالا ليشغل به عن الطعام الحرام فهذا يثاب على هذه النية والفعل. ٥٣٤/١٠

٣٣١- أن الأبرار وأصحاب اليمين قد يشتغلون بمباح عن مباح آخر فيكون كل من المباحين يستوي وجوده وعدمه في حقهم. أما السابقون المقربون فهم إنما يستعملون المباحات إذا كانت طاعة لحسن القصد فيها؛ والاستعانة على طاعة الله. وحينئذ فمباحاتهم طاعات وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال في حقهم إلا ما يترجح وجوده فيؤمنون به شرعا أمر استحباب أو ما يترجح عدمه فالأفضل لهم ألا يفعلوه وإن لم يكن فيه إثم والشريعة قد بينت أحكام الأفعال كلها. ٥٣٤/١٠

٣٣٢- وأما غير الأفعال الاختيارية: وهو ما فعل بالإنسان كما يحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع فهذا خارج عن التكليف مع أن العبد مأمور في مثل هذا أن يحبه إن كان حسنة ويغضه إن كان سيئة ويخلو عنهما إن لم يكن حسنة ولا سيئة، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية كالميت بين يدي الغاسل فقد رفع الأمر والنهي عنه في الأفعال الاختيارية وهذا باطل. ٥٣٦/١٠

٣٣٣- وحكم الشرع إنما يثبت في حق العبد إذا تمكن من معرفته وأما ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يطالب به وإنما عليه أن يتقي الله ما استطاع. وهذا خطأ في العلم وليس خطأ في العمل وهو كالمجتهد المخطئ له أجر على قصده واجتهاده، وخطؤه مرفوع عنه. ٥٣٦/١٠

٣٣٤- والإنسان غير عالم في كل حال بما هو الأصلح له في دينه وبما هو أرضى الله ورسوله فيبقى حالهم حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته. ٥٣٨/١٠

٣٣٥- فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره وتيسر له من الأمور هو الذي اختاره الله له. إذ لم يكن معه دليل شرعي على أن عين هذا الفعل هو مأمور به في هذه الحال. ٥٣٩/١٠

٣٣٦- كان الفقهاء يعدلون إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم. ثم القياس أيضا قد لا يحصل في كل واقعة فقد يخفى على الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان دخول الواقعة المعينة تحت خطاب عام أو اعتبارها بنظير لها فلا يعرف لها أصل ولا نظير. هذا مع كثرة نظرهم في خطاب الشارع ومعرفة معانيه ودلالاته على الأحكام. فكيف من لم يكن كذلك ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال والحرام؛ بل مقصوده أن هذا الفعل المعين خير من هذا وهذا خير من هذا وأيهما أحب إلى الله في حقه في تلك الحال وهذا باب واسع لا يحيط به إلا الله ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما ينهى عنه غيره ويؤمر في حال بما ينهى عنه في أخرى. فقالوا: نحن نفعل

الخير بحسب الإمكان وهو فعل ما علمنا أننا أمرنا به ونترك أصل الشر وهو هوى النفس ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك أن يوفقنا لما هو أحب إليه وأرضى له؛ فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب؛ ثم إن أصبنا فلنا أجران وإلا فلنا أجر وخطؤنا محطوط عنا فهذا هذا. ٥٣٩/١٠

٣٣٧- إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه وإن لم يتب فله نصيب من عالم السوء؛ ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين في مثل هذا. فقال أحدهما لصاحبه: إنما مثلك مثل الكلب؛ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. وقال الآخر: أنت كالحمار يحمل أسفارا؛ فهذا أحسن قصدا وأقوى علما. ولهذا تجد أصحاب حسن القصد إنما يعيرون على هؤلاء اتباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة، وأهل العلم يعيرون على أولئك نقص علمهم بالشرع، وعدولهم عن الأمر والنهي فهذا هذا. ٥٤٠/١٠

٣٣٨- مما بين حال كمال الصحابة رضي الله عنهم وأنهم خير قرون هذه الأمة؛ إذ كانوا في خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية في جليل الأمور ودقيقها مع اتساع الأمر، والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه كما أن الواحد من هؤلاء يتبع هواه في أمر قليل. فأولئك مع عظيم ما دخلوا فيه من الأمر والنهي لهم العلم الذي يميزون به بين الحسنات والسيئات ولهم القصد الحسن الذي يفعلون به الحسنات. والكثير من المتأخرين العالمين والعابدین يفوت أحدهم العلم في كثير من الحسنات والسيئات حتى يظن السيئة حسنة وبالعكس، أو يفوته القصد في كثير من الأعمال حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي. ٥٤٣/١٠

٣٣٩- هذا لعمرى إذا كان عند العالم ما هو أمر الشارع ونهيه حقيقة وعند العابد حسن القصد الخالي عن الهوى حقيقة فأما من خلط الشرع المنزل بالمبدل والمؤول، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى فهؤلاء وهؤلاء مخلطون في علمهم وعملهم وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصد، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم. ٥٤٣/١٠

٣٤٠- من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. وحسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه. والعلم الشرعي من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح فإن العلم قائد والعمل سائق، والنفس حرون فإن وني قائدها لم تستقم لسائقها وإن وني سائقها لم تستقم لقائدتها فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك فغاياته أن يستطرح للقدر وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائع عنه مع علمه به. ٥٤٤/١٠

٣٤١ - أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم. ٥٤٤/١٠

٣٤٢ - قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. ٥٤٤/١٠

٣٤٣ - والخشية تمنع اتباع الهوى، قال تعالى: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى* فإن الجنة هي المأوى}. والكمال في عدم الهوى وفي العلم هو لخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه: {والنجم إذا هوى* ما ضل صاحبكم وما غوى* وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى} فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحي فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد صلى الله عليه وسلم. ووصف أعداءه بضع هذين فقال تعالى: {إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا. ٥٤٥/١٠

٣٤٤ - فإن أقواما يقولون ويفعلون أمورا هم مجتهدون فيها وقد أخطئوا فتبلغ أقواما يظنون أنهم تعمدوا فيها الذنب أو يظنون أنهم لا يعذرون بالخطأ وهم أيضا مجتهدون مخطئون فيكون هذا مجتهدا مخطئا في فعله وهذا مجتهدا مخطئا في إنكاره والكل مغفور لهم. وقد يكون أحدهما مذنبا كما قد يكونان جميعا مذنبين. ٥٤٦/١٠

٣٤٥ - وفي الأثر: {من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله}. وعن سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان وقال تعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} وقال: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم} وهذا على أصح القولين في أن التوكل عليه بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضا سبب لجلب المنافع ودفع المضار فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوي الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم وبه يتصرفون ويؤثرون تارة بما يوافق الأمر. وتارة بما يخالفه. ٥٥٠/١٠

٣٤٦ - في قوت القلوب أحاديث ضعيفة وموضوعة وأشياء كثيرة مردودة. وأما ما في الإحياء من الكلام في المهلكات مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ومنه ما هو متنازع فيه. والإحياء فيه فوائد كثيرة؛ لكن فيه مواد مذمومة فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين. وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه. وقالوا: مرضه الشفاء يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة. وفيه أحاديث وآثار ضعيفة؛ بل موضوعة كثيرة. وفيه أشياء من أغاليط الصوفية

وترهاتهم. وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه فهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه. ٥٥١/١٠

٣٤٧- أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما تاما مفيدا مثل لا إله إلا الله ومثل الله أكبر ومثل سبحان الله والحمد لله ومثل لا حول ولا قوة إلا بالله ومثل {تبارك اسم ربك} {تبارك الذي بيده الملك} {سبح لله ما في السماوات والأرض} {تبارك الذي نزل الفرقان}. فأما الاسم المفرد مظهرا مثل: الله الله. أو مضمرا مثل هو هو. فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة. ولا هو مأثور أيضا عن أحد من سلف الأمة ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين. ٥٥٦/١٠

٣٤٨- يروي بعضهم {أن النبي صلى الله عليه وسلم لقن علي بن أبي طالب أن يقول: الله الله الله}. فقالتها النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا. ثم أمر عليا فقالتها ثلاثا. وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث. ٥٥٧/١٠

٣٤٩- وصنف ابن عربي كتابا في الهو فقلت له وأنا إذ ذاك صغير جدا لو كان كما تقول: لكتبت في المصحف مفصلة تأويل هو ولم تكتب مفصلة وهذا الكلام الذي قاله هذا معلوم الفساد بالاضطرار. وإنما كثير من غالطي المتصوفة لهم مثل هذه التأويلات الباطلة في الكتاب والسنة. ٥٦٠/١٠

٣٥٠- اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه؛ ولا هو جملة تامة؛ ولا كلاما مفيدا. ٥٦١/١٠

٣٥١- ولو كرر الإنسان اسم الله ألف ألف مرة لم يصر بذلك مؤمنا ولم يستحق ثواب الله ولا

جنته؛ فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون الاسم مفردا سواء أقروا به وبوحدانيته أم لا. ٥٦٢/١٠

٣٥٢- فإن الناس في الذكر أربع طبقات: إحداها الذكر بالقلب واللسان وهو المأمور به. الثاني الذكر بالقلب فقط فإن كان مع عجز اللسان فحسن وإن كان مع قدرته فترك للأفضل. الثالث الذكر باللسان فقط وهو كون لسانه رطبا بذكر الله وفيه حكاية التي لم تجد الملائكة فيه خيرا إلا حركة لسانه بذكر الله. ويقول الله تعالى: {أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه}. الرابع عدم الأمرين وهو حال الخاسرين. ٥٦٦/١٠

٣٥٣- سمي أصحاب البدع أصحاب الأهواء؛ فإن طريق السنة علم وعدل وهدى؛ وفي البدعة جهل وظلم وفيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس. ٥٦٨/١٠

٣٥٤ - الغي إذا كان اسماً لعمل الشر الذي يضر صاحبه فإن عاقبة العمل أيضاً تسمى غياً كما أن عاقبة الخير تسمى رشداً كما يسمى عاقبة الشر شراً وعاقبة الخير خيراً؛ وعاقبة السيئات سيئات. ٥٦٩/١٠

٣٥٥ - قال: { يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً }. قال مجاهد وغيره: يتبعون الشهوات الزنا وقال ابن زيد: هم أهل الباطل. وقال السدي: هم اليهود والنصارى والجميع حق؛ فإنهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر وقد يكون مع الاعتراف بأنها معصية. ثم ذكر أنه { وخلق الإنسان ضعيفاً } وسياق الكلام يدل على أنه ضعيف عن ترك الشهوات فلا بد له من شهوة مباحة يستغني بها عن المحرمة؛ ولهذا قال طاووس ومقاتل: ضعيف في قلة الصبر عن النساء. وقال الزجاج وابن كيسان: ضعيف العزم عن قهر الهوى. وقيل: ضعيف في أصل الخلقة؛ لأنه خلق من ماء مهين، يروى ذلك عن الحسن لكن لا بد أن يوجد مع ذلك أنه ضعيف عن الصبر ليناسب ما ذكر في الآية فإنه قال: { يريد الله أن يخفف عنكم } وهو تسهيل التكليف بأن يبيح لكم ما تحتاجون إليه ولا تصبروا عنه. كما أباح نكاح الفتيات؛ وقد قال قبل ذلك { لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم }. فهو سبحانه مع إباحته نكاح الإماء عند عدم الطول وخشية العنت قال: { وأن تصبروا خير لكم } فدل ذلك على أنه يمكن الصبر مع خشية العنت وأنه ليس النكاح كإباحة الميتة عند المخمصة فإن ذلك لا يمكن الصبر عنه. ٥٧٢/١٠

٣٥٦ - من أباح الاستمناة عند الضرورة فالصبر عن الاستمناة أفضل. فقد روي عن ابن عباس: أن نكاح الإماء خير منه وهو خير من الزنا، فإذا كان الصبر عن نكاح الإماء أفضل فعن الاستمناة بطريق الأولى أفضل. لا سيما وكثير من العلماء أو أكثرهم يجزمون بتحريمه مطلقاً وهو أحد الأقوال في مذهب أحمد. واختاره ابن عقيل في المفردات، والمشهور عنه يعني عن أحمد أنه محرم إلا إذا خشى العنت. والثالث: أنه مكروه إلا إذا خشى العنت. فإذا كان الله قد قال في نكاح الإماء: { وأن تصبروا خير لكم } ففيه أولى. وذلك يدل على أن الصبر عن كليهما ممكن. فإذا كان قد أباح ما يمكن الصبر عنه فذلك لتسهيل التكليف كما قال تعالى: { يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً }. والاستمناة لا يباح عند أكثر العلماء سلفاً وخلفاً سواء خشى العنت أو لم يخش ذلك. وكلام ابن عباس وما روي عن أحمد فيه إنما هو لمن خشى العنت وهو الزنا واللواط خشية شديدة خاف على نفسه من الوقوع في ذلك فأبيح له ذلك لتكسير شدة عنته وشهوته. وأما من فعل ذلك تلذذاً أو تذكراً أو عادة؛ بأن يتذكر في حال استمنائه صورة كأنه يجامعها فهذا كله محرم لا يقول به

أحمد ولا غيره وقد أوجب فيه بعضهم الحد، والصبر عن هذا من الواجبات لا من المستحبات.
٥٧٣/١٠

٣٥٧- فالمستغني لا يستشرف بقلبه، والمستعف هو الذي لا يسأل الناس بلسانه، والمتصبر هو الذي لا يتكلف الصبر. فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله. وهذا كأنه في سياق الصبر على الفاقة بأن يصبر على مرارة الحاجة لا يجزع مما ابتلي به من الفقر. ٥٧٥/١٠

٣٥٨- والصبر على ما ابتلي به باختياره كالجهاد؛ فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذي يبتلى به بغير اختياره؛ ولذلك إذا ابتلي بالعنت في الجهاد فالصبر على ذلك أفضل من الصبر عليه في بلده؛ لأن هذا الصبر من تمام الجهاد. وكذلك لو ابتلي في الجهاد بفاقة أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل. ٥٧٥/١٠

٣٥٩- ما يؤذى الإنسان به في فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم من المصائب فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلي به بدون ذلك، وكذلك إذا دعت نفسه إلى محرمات: من رئاسة وأخذ مال وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك؛ فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونها. ٥٧٥/١٠

٣٦٠- في العلم والإمارة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلاة والحج والصوم والزكاة من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها. ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور. فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه كما تطمع مع القدرة؛ فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة؛ بخلاف حالها بدون القدرة فإن الصبر مع القدرة جهاد؛ بل هو من أفضل الجهاد. وأكمل من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب. الثاني: أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك. الثالث: أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني كمن خرج لصلاة أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل إليه من ذلك فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور وترك المحذور؛ بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح. ٥٧٦/١٠

٣٦١- كان يونس بن عبيد يوصي بثلاث يقول: لا تدخل على سلطان، وإن قلت: أمره بطاعة الله. ولا تدخل على امرأة؛ وإن قلت: أعلمها كتاب الله. ولا تصغ أذنك إلى صاحب بدعة وإن قلت: أرد عليه. فأمره بالاحتراز من أسباب الفتنة فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن ولا يسلم. فإذا قدر أنه ابتلي بذلك بغير اختياره أو دخل فيه باختياره وابتلي فعليه أن يتقي الله، ويصبر ويخلص ويجاهد. وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من أفضل الأعمال كمن تولى ولاية

وعدل فيها أو رد على أصحاب البدع بالسنة المحضة ولم يفتنوه، أو علم النساء الدين على الوجه المشروع من غير فتنة. لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه، وإذا تعرض العبد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه. ٥٧٧/١٠

٣٦٢- أن الله سبحانه يريد أن يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا الذين قال فيهم: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} وهم الذين أمرنا أن نسأله الهداية لسبيلهم في قوله: {اهدنا الصراط المستقيم} * صراط الذين أنعمت عليهم} فهو يجب لنا ويأمرنا أن نتبع صراط هؤلاء وهو سبيل من أناب إليه فذكر هنا ثلاثة أمور: البيان والهداية والتوبة. وقيل: المراد بالسنن هنا سنن أهل الحق والباطل. أي: يريد أن يبين لنا سنن هؤلاء وهؤلاء فيهدي عباده المؤمنين إلى الحق ويضل آخرين فإن الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان. ٥٧٨/١٠

٣٦٣- فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا وهم الذين أنعم الله عليهم. وذكر ثلاثة أمور: التبيين والهدى والتوبة؛ لأن الإنسان أولاً يحتاج إلى معرفة الخير والشر وما أمر به وما نهي عنه ثم يحتاج بعد ذلك إلى أن يهدى فيقصد الحق ويعمل به دون الباطل. وهو سنن الأنبياء والصالحين. ثم لا بد له بعد ذلك من الذنوب فيريد أن يتطهر منها بالتوبة فهو محتاج إلى العلم والعمل به وإلى التوبة مع ذلك فلا بد له من التقصير أو الغفلة في سلوك تلك السنن التي هداه الله إليها فيتوب منها بما وقع من تفريط في كل سنة من تلك السنن وهذه السنن تدخل فيها الواجبات والمستحبات فلا بد للسالك فيها من تقصير وغفلة فيستغفر الله ويتوب إليه. فإن العبد لو اجتهد مهما اجتهد لا يستطيع أن يقوم لله بالحق الذي أوجه عليه فما يسعه إلا الاستغفار والتوبة عقيب كل طاعة. ٥٧٩/١٠

٣٦٤- فإن أول الفكر آخر العمل وأول البغية آخر الدرك. ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك مقهوراً تحت سلطان الهوى أعظم من قهر كل قاهر فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه لا يمكنه مفارقتها ألبتة والصورة الذهنية تطلبها النفس فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه وتمثله لها في نفسها فهو متبع للإرادة. وإن كانت الذهنية والتنزين من الزين والمراد التصور في نفسه. والمشتهى الموجود في الخارج له محركان التصور والمشتهى، هذا يحركه تحريك طلب وأمر، وهذا يأمره أن يتبع طلبه وأمره، فاتباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله؛ بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقتها مع بقاء نفسه على حالها: وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه. ٥٨٧/١٠

٣٦٥- وقال المفسرون في قوله تعالى {ومن يوق شح نفسه} هو ألا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه فالشح يأمر بخلاف أمر الله ورسوله فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان. ٥٨٩/١٠

٣٦٦- وقد ذكر تعالى الشح في سياق ذكر الحسد والإيثار في قوله: {ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} ثم قال {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} فمن وقى شح نفسه لم يكن حسوداً باغياً على المحسود والحسد أصله بغض المحسود. والشح يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال وبغض للغير وظلم له. ٥٨٩/١٠

٣٦٧- فالحسد والشح يتضمنان بغضاً وكرهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص فإن الفعل صدر فيه عن بغض بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب أحب شيئاً فأتبعه ففعله وذلك مقصوده أمر عدمي والعدم لا ينفع. ولكن ذاك القصد أمر بأمر وجودي فأطيع أمره. وابن مسعود جعل البخل خارجاً عن الشح والنبي صلى الله عليه وسلم جعل الشح يأمر بالبخل. ومن الناس من يقول: الشح والبخل سواء. كما قال ابن جرير: الشح في كلام العرب هو البخل ومنع الفضل من المال. وليس كما قال بل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وابن مسعود أحق أن يتبع فإن البخيل قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم وقد لا يكون متلذذاً به ولا متنعماً بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثرة ماله وهذا قد يكون مع التذاده بجمع المال ومحبه لرؤيته وقد لا يكون هناك لذة أصلاً؛ بل يكره أن يفعل إحساناً إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضاً للخير لا للمعطي ولا للمعطى بل بغضاً منه للخير وقد يكون بغضاً وحسداً للمعطى أو للمعطي وهذا هو الشح وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعاً ولكن كل بخل يكون عن شح. فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً. قال الخطابي: الشح أبلغ في المنع من البخل والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء والشح عام فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجملة. ٥٩٠/١٠

٣٦٨- كل من عبد شيئاً غير الله فإنما يعبد الشيطان ولهذا يقارن الشيطان الشمس عند طلوعها وغروبها واستوائها ليكون سجود من يعبدها له. وقد كانت الشياطين تتمثل في صورة من يعبد كما كانت تكلمهم من الأصنام التي يعبدونها. ٥٩٣/١٠

٣٦٩- أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهي حتى يقهره ويملكه ويبقى أسيراً، ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب ولهذا قال بعض السلف: ما أنا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث

يجلس إليه. وذلك أن النفس الصافية التي فيها رقة الرياضة ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذبا تاما ولا قام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها متى صارت تحت صورة من الصور استولت تلك الصورة عليها كما يستولي السبع على ما يفترسه؛ فالسبع يأخذ فريسته بالقهر ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره فلا يقدر قلبه على الامتناع منه فيبقى قلبه مستغرقا في تلك الصورة أعظم من استغراق الفريسة في جوف الأسد؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس له عليها سلطان قاهر. والقلب يغرق فيما يستولي عليه: إما من محبوب وإما من مخوف كما يوجد من محبة المال والجاه والصور، والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقا فيه كما يغرق الغريق في الماء فلا بد أن يستولي عليها ما يحيط بها من الأجسام والقلوب يستولي عليها ما يمثّل لها من المخاوف والمحبوبات والمكروهات فالمحسوب يطلبه والمكروه يدفعه والرجاء يتعلق بالمحسوب، والخوف يتعلق بالمكروه. ٥٩٤/١٠

٣٧٠- وإذا دعا العبد ربه بإعطاء المطلوب ودفع المرهوب جعل له من الإيمان بالله ومحبهه ومعرفته وتوحيده ورجائه وحياة قلبه واستنارته بنور الإيمان ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضا من الدنيا وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب وهو الدعاء، والمطلوب الذكر والشكر وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك. ٥٩٦/١٠

٣٧١- وقال تعالى: {قتل الخراصون* الذين هم في غمرة ساهون} الآيات: أي ساهون عن أمر الآخرة فهم في غمرة عنها أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له. وهذا يشبه قوله: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا} فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة؛ ولهذا قال من قال: السهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه وهذا جماع الشر الغفلة والشهوة فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة. والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه غافلا عن الله رائدا غير الله ساهيا عن ذكره قد اشتغل بغير الله قد انفرط أمره قد ران حب الدنيا على قلبه. ٥٩٦/١٠

٣٧٢- قال بعض السلف: البس من الثياب ما يخدمك ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه. ٥٩٧/١٠

٣٧٣- فما كان يرضي الإنسان حصوله، ويسخطه فقد هو عبده إذ العبد يرضى باتصاله بهما ويسخط لفقدتهما. والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في

قلبه إيمان وتوحيد ومحبة وذكر وعبادة فيرضى بذلك وإذا منع من ذلك غضب. وكذلك من أحب شيئاً فلا بد أن يتصوره في قلبه، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان. ٥٩٨/١٠

٣٧٤- روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى بئس العبد عبد سهى ولهى ونسي المقابر والبلى بئس العبد عبد بغى واعتدى ونسي المبدأ والمنتهى بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضلّه} قال الترمذي غريب. وفي الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه. والله أعلم. وكذلك أحاديث وآثار كثيرة رويت في معنى ذلك. ٥٩٩/١٠

٣٧٥- وطالب الرئاسة ولو بالباطل ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً. والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ويغض الكذب والظلم. فإذا قيل: الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله أحبه وإن كان فيه مخالفة هواه. لأن هواه قد صار تبعاً لما جاء به الرسول. وإذا قيل: الظلم والكذب فالله ييغضه والمؤمن ييغضه ولو وافق هواه. ٥٩٩/١٠

٣٧٦- فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل فيكون حبه لله ولما يحبه الله وبغضه لله ولما ييغضه الله وكذلك موالاته ومعاداته وإلا فمحببة المخلوق تجذبه وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه ثم قد يكون هذا أقوى وقد يكون هذا أقوى فإذا كان هو غالباً لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ولا محبوباته إليها؛ لكونه غالباً لهواه ناهياً لنفسه عن الهوى لما في قلبه من خشية الله ومحبتة التي تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات. وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبه هم بقوتهم إليهم فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته وإلا جذبه وأخذوه إليهم كحب امرأة العزيز ليوسف؛ فإن قوة يوسف ومحبتة الله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها، هذا إذا أحب أحدهم صورته مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم فهنا المعصوم من عصمه الله وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم. ٦٠١/١٠

٣٧٧- وقد يجبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك؛ فالفتنة في هذا أعظم؛ إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية وخشية وتوحيد تام؛ فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون. وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم إن لم يفعلها وإلا نقص الحب. أو حصل نوع بغض وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ

من حبه فصار مبغوضا بعد أن كان محبوبا فأصدقاء الإنسان يجنون استخدامه واستعماله في أغراضهم حتى يكون كالعبد لهم وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره وأولئك يطلبون منه انتفاعهم وإن كان مضرا له مفسدا لدينه لا يفكرون في ذلك. وقليل منهم الشكور. فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره وإنما يقصدون أغراضهم به فإن لم يكن الإنسان عابدا لله متوكلا عليه مواليا له ومواليا فيه ومعاديا وإلا أكلته الطائفتان وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة. وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن. قوم يوالون زيدا ويعادون عمرا. وآخرون بالعكس؛ لأجل أغراضهم فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبونه من زيد انقلبوا إلى عمرو، وكذلك أصحاب عمرو. ٦٠٢/١٠

٣٧٨- وكذلك الرأس من الجانبين يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليه من أولئك؛ فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه: إما بقتله أو بأخذ ماله، وإما بإزالة منصبه وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به إذا سلم العبد وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم. فهم لا يبالون بذلك. وأما دين العبد الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرّون عليه. وأما أولياؤه الذين يوالونه للأغراض فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك فإن لم يفعل انقلبوا أعداء. فدخل بذلك عليه الأذى من جهتين: من جهة مفارقتهم. ومن جهة عداوتهم. وعداوتهم أشد عليه من عداوة أعدائه؛ لأنهم قد شاهدوا منه. وعرفوا ما لم يعرفه أعداؤه. فاستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتتضاعف العداوة. وإن لم يجب مفارقتهم احتاج إلى مدهنتهم ومساعدتهم على ما يريدونه وإن كان فيه فساد دينه. فإن ساعدتهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيبا وافرا وحظا تاما من ظلمهم وجورهم وطلبوا منه أيضا أن يعاونهم على أغراضهم ولو فاتت أغراضه الدنيوية. فكيف بالدينية إن وجدت فيه أو عنده فإن الإنسان ظالم جاهل لا يطلب إلا هواه. فإن لم يكن هذا في الباطن يحسن إليهم ويصبر على أذاهم. ويقضي حوائجهم لله وتكون استعانتهم عليهم بالله تامة وتوكله على الله تام. وإلا أفسدوا دينه ودنياه كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة ويحسن له هذا الرأي، ويعاديه إن لم يقم معه. ٦٠٣/١٠

٣٧٩- فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه وهذا من معاني إلهيته و {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} فإن محبة الشيء لذاته شرك فلا يجب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته فلا يستحق ذلك إلا الله وحده وكل محبوب سواه إن لم يجب لأجله أو لما يجب لأجله فمحبته فاسدة. ٦٠٧/١٠

- ٣٨٠- فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته فكلما تصورت في قلبك تصورت محبوب الحق فأحبيته فازداد حبك لله. كما إذا ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصالحين وتصورتهم في قلبك فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم وبهم إذا كنت تحبهم لله فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله والمحبة لله إذا أحب شخصا لله فإن الله هو محبوبه فهو يجب أن يجذبه إلى الله تعالى وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله. ٦٠٨/١٠
- ٣٨١- فإن من أحب إنسانا لكونه يعطيه فما أحب إلا العطاء ومن قال: إنه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول وكذلك من أحب إنسانا لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر. وهذا كله من اتباع ما تهوى الأنفس فإنه لم يجب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جلب منفعة أو دفع مضرة فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة وإنما أحب ذلك لكونه وسيلة إلى محبوبه وليس هذا حبا لله ولا لذات المحبوب. ٦٠٩/١٠
- ٣٨٢- وإذا كانت الرؤيا على ثلاثة أقسام: رؤيا من الله. ورؤيا من حديث النفس. ورؤيا من الشيطان، فكذلك ما يلقي في نفس الإنسان في حال يقظته ثلاثة أقسام ولهذا كانت الأحوال ثلاثة: رحماني ونفساني وشيطاني. وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف ملكي ونفسي وشيطاني فإن الملك له قوة والنفس لها قوة والشيطان له قوة وقلب المؤمن له قوة. فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل. ٦١٢/١٠
- ٣٨٣- الزهد هو عما لا ينفع إما لانتفاء نفعه أو لكونه مرجوحا؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة أو الراجحة: فالزهد فيها حمق. وأما الورع فإنه الإمساك عما قد يضر فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر. ٦١٥/١٠
- ٣٨٤- وأما الورع عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة تقترن به من جلب منفعة راجحة أو دفع مضرة أخرى راجحة فجهل وظلم. وذلك يتضمن ثلاثة أقسام لا يتورع عنها: المنافع المكافئة والراجحة والخالصة: كالمباح المحض أو المستحب أو الواجب فإن الورع عنها ضلالة. ٦١٥/١٠
- ٣٨٥- فإنه كثيرا ما يشته الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرا ما تشته الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعي صاحبه. ٦١٧/١٠
- ٣٨٦- فتلخص أن الزهد من باب عدم الرغبة والإرادة في المزهود فيه. والورع من باب وجود النفرة والكرهية للمتورع عنه وانتفاء الإرادة إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة. وأما وجود الكراهة فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة فأما إذا فرض ما لا منفعة فيه ولا مضرة أو منفعة ومضرتة سواء من كل وجه؛ فهذا لا يصلح أن يراد ولا يصلح أن يكره فيصلح فيه الزهد ولا

يصلح فيه الورع فظهر بذلك أن كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد من غير عكس وهذا بين. فإن ما صلح أن يكره وينفر عنه صلح ألا يراد ولا يرغب فيه فإن عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة؛ ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة من غير عكس. وليس كل ما صلح ألا يراد يصلح أن يكره؛ بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به ولا النهي عنه. وبهذا يتبين: أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع؛ وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع. وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل. ٦١٨/١٠

٣٨٧- قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق كما قد يستدل به طوائف على أنواع من الرهبانيات والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسلم. ٦٢٠/١٠

٣٨٨- وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام الكلمتين وهما أفضل الأعمال. ٦٢١/١٠

٣٨٩- ولو قيل: الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحا اتصاف الأول باعتبار تعلقه بالأمر. والثاني باعتبار صفته في نفسه. والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط وتارة من جهة صفته في نفسه وتارة من كلا الأمرين. فبالاعتبار الأول ينقسم إلى طاعة ومعصية وبالثاني ينقسم إلى حسنة وسيئة، والطاعة والمعصية اسم له من جهة الأمر والحسنة والسيئة اسم له من جهة نفسه. ٦٢١/١٠

٣٩٠- قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة: {أجرك على قدر نصبك} لأن الأجر

على قدر العمل في بعد المسافة وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر وكذلك الجهاد. ٦٢٢/١٠

٣٩١- فكثيرا ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل؛

ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال ولم يجعل علينا فيه حرج ولا أريد بنا فيه العسر؛ وأما في شرع من قبلنا فقد تكون المشقة مطلوبة منهم. وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوبا مقربا إلى الله؛ لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم. ٦٢٢/١٠

- ٣٩٢ - وأصل الزكاة الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرع وزكا المال إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر؛ فإنه يندس النفس ويدسيها. ٦٢٨/١٠
- ٣٩٣ - فالبر والتقوى ييسط النفس ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعا وبسطا عما كان عليه قبل ذلك؛ فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره. والفجور والبخل يجمع النفس ويضعها ويهينها بحيث يجد البخل في نفسه أنه ضيق. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث الصحيح فقال: {مثل البخل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما. فجعل المتصدق كلما هم بصدقة اتسعت وانبسطت عنه حتى تغشى أنامله. وتعفو أثره وجعل البخل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها وأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بإصبعه في جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع} أخرجاه. ٦٢٩/١٠
- ٣٩٤ - والنفس البرة التقية النقية التي قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من في السقاء وكالشعرة من العجين. ٦٣٠/١٠
- ٣٩٥ - أن المؤمن إذا نهي عن المنكر فلا بد ألا يقربه ويعزم على تركه ويكره فعله وهذا أمر وجودي بلا ريب. ٦٣١/١٠
- ٣٩٦ - كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة ويتصدق بها قبل الصلاة ولو لم يجد إلا بصلا. ٦٣٣/١٠
- ٣٩٧ - والتحقيق أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة. كقوله: {هل لك إلى أن تزكى} وقوله: {قد أفلح من تزكى} والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها. ٦٣٣/١٠
- ٣٩٨ - قال صلى الله عليه وسلم {اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج} كان يدعو به في الاستفتاح وفي الاعتدال من الركوع والغسل. فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها والبرد يعطي قوة وصلابة وما يسر يوصف بالبرد وقرّة العين ولهذا كان دمع السرور باردا ودمع الحزن حارا؛ لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن. فسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب. وقوله: بالثلج والبرد والماء البارد تمثيل بما فيه من هذا الجنس وإلا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك كما يقال: أدقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك.

ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال صلى الله عليه وسلم: {الآن بردت جلدهته} ويقال: برد اليقين وحرارة الشك. ويقال: هذا الأمر يثلج له الصدر إذا كان حقا يعرفه القلب ويفرح به حتى يصير في مثل برد الثلج. ومرض النفس: إما شبهة وإما شهوة أو غضب والثلاثة توجب السخونة. ويقال لمن نال مطلوبه: برد قلبه. فإن الطالب فيه حرارة الطلب. ٦٣٤/١٠

٣٩٩- ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو بينها كان نهيها عبادة لله وعملا صالحا. وثبت عنه أنه قال: {المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله} فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها وهو إلى جهاد نفسه أحوج فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية والصبر في هذا من أفضل الأعمال فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد. كما قال: {والمهاجر من هجر السيئات}. ٦٣٥/١٠

٤٠٠- فمن مالت نفسه إلى محرم فليات بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء والفحشاء. ٦٣٦/١٠

٤٠١- ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه. وكذلك الإيمان والكفران متضادان فكل ضدين: فأحدهما يمنع الآخر تارة؟ ويرفعه أخرى كالسواد والبياض. ٦٣٧/١٠

٤٠٢- الحب من أعظم شعب الإيمان. ٦٣٨/١٠

٤٠٣- فإذا كانت السيئات لا تحبب جميع الحسنات فهل تحبب بقدرها وهل يحبب بعض الحسنات بذنب دون الكفر؟ فيه قولان للمتسبين إلى السنة. منهم من ينكره ومنهم من يثبته كما دلت عليه النصوص. مثل قوله: {لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى} الآية. دل على أن هذه السيئة تبطل الصدقة وضرب مثله بالمرائي وقالت عائشة أبلغني زيدا أن جهاده بطل الحديث. وأما قوله: {أن تحبب أعمالكم} وحديث صلاة العصر ففي ذلك نزاع. وقال تعالى: {ولا تبطلوا أعمالكم} قال الحسن: بالمعاصي والكبائر وعن عطاء: بالشرك والنفاق وعن ابن السائب: بالرياء والسمعة وعن مقاتل: باليمن. وذلك أن قوما منوا بإسلامهم فما ذكر عن الحسن يدل على أن المعاصي والكبائر تحبب الأعمال. فإن قيل: لم يرد إلا إبطالها بالكفر. قيل: ذلك منهي عنه في نفسه وموجب للخلود الدائم فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا بل يذكره على وجه التخليط. كقوله: {من يرتد منكم عن دينه} ونحوها. والله سبحانه في هذه وفي آية المن سماها إبطالا ولم يسمه إحباطا؛ ولهذا ذكر بعدها الكفر بقوله: {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار} الآية. فإن قيل: المراد إذا دخلتم

فيها فأتموها وبها احتج من قال: يلزم التطوع بالشروع فيه. قيل: لو قدر أن الآية تدل على أنه منهي عن إبطال بعض العمل بإبطاله كله أولى بدخوله فيها فكيف وذلك قبل فراغه لا يسمى صلاة ولا صوما ثم يقال: الإبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده وما ذكره أمر بالإتمام والإبطال هو إبطال الثواب ولا نسلم أن من لم يتم العبادة يبطل جميع ثوابه بل يقال: إنه يثاب على ما فعل من ذلك. وفي الصحيح حديث المفلس الذي يأتي بحسنات أمثال الجبال. ٦٣٨/١٠

٤٠٤ - وكان عاداته في المطعم أنه لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك وكان القطن أحب إليه وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد في الزهد أو العبادة على المشروع ويقول: أينما مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب لذلك. ٦٤٢/١٠

٤٠٥ - فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ولا هو من دين الأنبياء. ٦٤٢/١٠

٤٠٦ - والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجبا تارة ومستحبا أخرى فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين وكذلك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع كما يعاينه بعض النساك أمر منهي عنه قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين. وأما السياحة المذكورة في القرآن من قوله: {التائبون العابدون الحامدون السائحون} ومن قوله: {مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا} فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة؛ فإن الله قد وصف النساء اللاتي يتزوجهن رسوله بذلك والمرأة المزوجة لا يشرع لها أن تسافر في البراري سائحة؛ بل المراد بالسياحة شيئا. أحدهما الصيام. ٦٤٣/١٠

٤٠٧ - {علم اليقين} ما علمه بالسمع والخبر والقياس والنظر و{عين اليقين} ما شاهده وعاينه بالبصر و{حق اليقين} ما باشره ووجدته وذاقه وعرفه بالاعتبار. فالأولى: مثل من أخبر أن هناك عسلا وصدق المخبر. أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده. والثاني: مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم {ليس المخبر كالمعائن}. والثالث: مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله. ٦٤٥/١٠

٤٠٨ - فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويدوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات: الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك. والثانية: من شاهد ذلك وعاينه مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجدهم وأذواقهم وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما

ذاقوه ووجدوه ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر والمستدل بآثارهم. والثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طربا. وقال الآخر: لأهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم.
٦٤٦/١٠

٤٠٩ - فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب بل يجبه ويرضاه فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه وإذا خالطت القلب لم يسخطه قال تعالى: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}. ٦٤٨/١٠

٤١٠ - إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة فإنه يخذل من جهتهم؛ ولا يحصل مقصوده بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه؛ إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه واستغاث به مخلصا له الدين؛ أجاب دعاءه؛ وأزال ضرره وفتح له أبواب الرحمة. فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره. وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك.
٦٥٠/١٠

٤١١ - فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها. قال تعالى: {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله}. {ووصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ لما بعثه إلى اليمن فقال: يا معاذ: اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن}. وكان معاذ رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة علي؛ فإنه قال له: {يا معاذ والله إني لأحبك وكان يردفه وراءه}. وروي فيه: أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام وأنه يحشر أمام العلماء برتوة أي بخطوة. ومن فضله أنه بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مبلغا عنه داعيا ومفقهها ومفتيا وحاكما إلى أهل اليمن. وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام وإبراهيم إمام الناس. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إن معاذ كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين؛ تشبيها له بإبراهيم. ثم إنه صلى الله عليه وسلم وصاه هذه الوصية فعلم أنها جامعة. وهي كذلك لمن عقلها مع أنها تفسير الوصية القرآنية. ٦٥٣/١٠

٤١٢ - والذنب للعبد كأنه أمر حتم، فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يحو السيئات. ٦٥٥/١٠

٤١٣ - وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء: أحدها: التوبة. والثاني: الاستغفار من غير توبة. فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال. الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة: أما الكفارات المقدره كما يكفر الجامع في رمضان. ٦٥٥/١٠

٤١٤ - وأما الكفارات المطلقة كما قال حذيفة لعمر: فتنة الرجل في أهله وماله وولده؛ يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس والجمعة والصيام والحج وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غفر له أو غفر له ما تقدم من ذنبه وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن. ٦٥٦/١٠

٤١٥ - ومما يزيل موجب الذنوب المصائب المكفرة وهي كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى في مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك لكن ليس هذا من فعل العبد. ٦٥٨/١٠

٤١٦ - وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض؛ فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة. ٦٦٠/١٠

٤١٧ - وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به. وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه. ٦٦٢/١٠

٤١٨ - ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه ولا يأخذه بإشراف وهلع؛ بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء. ٦٦٣/١٠

٤١٩ - جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علما وما سواه إما أن يكون علما فلا يكون نافعا؛ وإما ألا يكون علما وإن سمي به. ولئن كان علما نافعا فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه. ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس إذا أمكنه

ذلك. وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها { أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام يصلي من الليل: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم }.
٦٦٤/١٠

٤٢٠ - وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل البخاري لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم. ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر في أبواب العلم إذ لا بد من معرفة أحاديث أخر وكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يختص بعلمها بعض العلماء. وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابا فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالا؛ كما { قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي لبيد الأنصاري: أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟ فماذا تغني عنهم؟ }. ٦٦٥/١٠

٤٢١ - والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام. أحدها: أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة. والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتزكون المحرمات لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلهه. والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام؛ والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها. وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهونونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام. وهؤلاء هم الذين يريدون علوا في الأرض أو فسادا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظرا أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور وفعلوه من المحذور وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب: كالمرض والفقر وغير ذلك ولا يكون فيه تقوى إذا قدر. وأما القسم الرابع فهو شر الأقسام: لا يتقون إذا قدروا ولا يصبرون إذا ابتلوا. ٦٧٣/١٠

٤٢٢ - وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة. ٦٧٥/١٠

٤٢٣ - وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا. ٦٧٦/١٠

٤٢٤ - وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى {وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة}. وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها؛ فإن القسمة أيضا رباعية إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين: مثل كثير من النساء ومن يشبههن ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلح. والمحمود هو الذي يصبر ويرحم كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قويا من غير عنف لينا من غير ضعف فبصبره يقوى وبلينه يرحم وبالصبر ينصر العبد؛ فإن النصر مع الصبر وبالرحمة يرحمه الله تعالى. ٦٧٧/١٠

٤٢٥ - ورواية الأحاديث المكذوبة مع بيان كونها كذبا جائز. وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل فإنه حرام عند العلماء. ٦٧٩/١٠

٤٢٦ - فإن كثيرا من الفقهاء لا يحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب. ٦٨١/١٠

٤٢٧ - والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وابتلي بعسر البول فغلبه الألم حتى قال: بجي لك إلا فرجت عني؛ ففرج عنه. ٦٩١/١٠

٤٢٨ - فقول القائل: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار إن أراد بذلك ألا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء وإنك لا تستعيذ به من احتجاجة عنك ولا من تعذيبك في النار. فهذا الكلام مع كونه مخالفا لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين فهو متناقض في نفسه فاسد في صريح العقول. وذلك أن الرضا الذي لا يسأل إنما لا يسأله لرضاه عن الله. ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ومحبه له. وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال: يرضى ألا يرضى وهذا جمع بين النقيضين. ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول ولا عقله. يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمل على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته. فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يتحمل ألما ومرارة فكيف يتصور أن يكون راضيا وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره؟ وإنما هذا من جنس كلام السكران والغاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان وهذا غلط عظيم منه. ٧٠٤/١٠

٤٢٩ - والقشيري قد ذكره في أوائل باب الرضا فقال: اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أمر بالرضا به إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به. كالمعاصي وفنون محن المسلمين. وهذا الذي قاله قبله وبعده ومعه غير واحد من العلماء: كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأمثالهما لما احتج عليهم القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به فلو كانت المعاصي بقضاء الله لكنها مأمورين بالرضا بها والرضا بما نهي الله عنه لا يجوز فأجابهم أهل السنة عن ذلك بثلاثة أجوبة: أحدها وهو جواب هؤلاء وجهاهير الأئمة أن هذا العموم ليس بصحيح فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قضى وقدر ولم يجرى في الكتاب والسنة أمر بذلك ولكن علينا أن نرضى بما أمرنا أن نرضى به كطاعة الله ورسوله. وهذا هو الذي ذكره أبو القاسم. والجواب الثاني أنهم قالوا: إنا نرضى بالقضاء الذي هو صفة الله أو فعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله. وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه في غير هذا الموضوع. الثالث أنهم قالوا: هذه المعاصي لها وجهان: وجه إلى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه ووجه إلى الرب من حيث هو خلقها وقضاها وقدرها فيرضى من الوجه الذي يضاف به إلى الله ولا يرضى من الوجه الذي يضاف به إلى العبد إذ كونها شرا وقيحة ومحرمًا وسببًا للعذاب والدم ونحو ذلك إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد.

٧٠٩/١٠

٤٣٠ - فإن دعاء العبد لربه ومسألته إياه ثلاثة أنواع: نوع أمر العبد به إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب: مثل قوله {اهدنا الصراط المستقيم} ومثل دعائه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر به أصحابه فقال: {إذا قعد أحدكم في الصلاة فليستعد بالله من أربع: من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال}. فهذا دعاء أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا به في آخر صلاتهم. وقد اتفقت الأمة على أنه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه وتنازعوا في وجوبه. فأوجبه طاووس وطائفة وهو قول في مذهب أحمد رضي الله عنه والأكثر قالوا: هذا مستحب والأدعية التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها: لا تخرج عن أن تكون واجبة أو مستحبة وكل واحد من الواجب والمستحب يحبه الله ويرضاه. ومن فعله رضي الله عنه وأرضاه فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه. ونوع من الدعاء ينهى عنه: كالاكتداء مثل أن يسأل الرجل ما لا يصلح من خصائص الأنبياء وليس هو بنبي وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى. ٧١٢/١٠

٤٣١ - ومن الدعاء ما هو مباح كطلب الفضول التي لا معصية فيها. ٧١٤/١٠

٤٣٢ - كان الصواب عند جماهير أهل السنة وهو ظاهر مذهب أحمد وهو أصح الروايتين عنه وقول أكثر أصحابه أن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان بل وكذلك الصفات التي تقوم بغير الحي: كالألوان والطعوم والأرواح. ٧٢١/١٠

٤٣٣ - من كذب رسولا معينا كان كتكذيب جنس الرسل كما قيل فيه: { كذبت قوم نوح المرسلين } { كذبت عاد المرسلين }. ٧٢٥/١٠

٤٣٤ - وأخبر سبحانه أن لكل من المتبعين والأتباع تضعيفا من العذاب. ولكن لا يعلم الأتباع التضعيف. ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال حتى روي في أثر لا يحضرنى إسناده إنه ما من عذاب في النار إلا يبدأ فيه بإبليس ثم يصعد بعد ذلك إلى غيره وما من نعيم في الجنة إلا يبدأ فيه بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم ينتقل إلى غيره { فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم. ٧٢٧/١٠

٤٣٥ - وأما الهام بالسيئة الذي لم يعملها وهو قادر عليها فإن الله لا يكتبها عليه كما أخبر به في الحديث الصحيح. وسواء سمي همه إرادة أو عزمًا أو لم يسم متى كان قادرا على الفعل وهم به وعزم عليه ولم يفعله مع القدرة فليست إرادته جازمة. ٧٣٧/١٠

٤٣٦ - فإن ما هم به العبد من الأمور التي يقدر عليها من الكلام والعمل ولم يتكلم بها ولم يعملها لم تكن إرادته لها جازمة فتلك مما لم يكتبها الله عليه كما شهد به قوله: { من هم بسيئة فلم يعملها } ومن حكى الإجماع كابن عبد البر وغيره. في هذه المسألة على هذا الحديث فهو صحيح بهذا الاعتبار. وهذا الهام بالسيئة: إما أن يتركها لخشية الله وخوفه أو يتركها لغير ذلك؛ فإن تركها لخشية الله كتبها الله له عنده حسنة كاملة كما قد صرح به في الحديث وكما قد جاء في الحديث الآخر { اكتبوها له حسنة فإنما تركها من أجلي أو قال: من جرائي } وأما إن تركها لغير ذلك لم تكتب عليه سيئة كما جاء في الحديث الآخر { فإن لم يعملها لم تكتب عليه }. وبهذا تتفق معاني الأحاديث. وإن عملها لم تكتب عليه إلا سيئة واحدة فإن الله تعالى لا يضعف السيئات بغير عمل صاحبها ولا يجزي الإنسان في الآخرة إلا بما عملت نفسه ولا تمتلئ جهنم إلا من أتباع إبليس من الجنة والناس. ٧٣٨/١٠

٤٣٧ - الصحيح المنصوص عن أئمة العدل كأحمد وغيره الوقف في أولاد المشركين؛ وأنه لا يجزم لمعين منهم بجنة ولا نار. ٧٣٩/١٠

٤٣٨ - فإن الإرادة الجازمة هي التي يقترن بها المقذور من الفعل وإلا فمتى لم يقترن بها المقذور من الفعل لم تكن جازمة فالمريد الزنا والسرقه وشرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة

عازمة فلا بد أن يقتزن بها من الفعل ما يقدر عليه ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية: مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق ومثل نظر الزاني واستماعه إلى المزني به وتكلمه معه ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقذور بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه. ٧٤١/١٠

٤٣٩- كمن يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره فليس هذا بتائب مطلقا. ولكنه تارك للفعل في شهر رمضان ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله واجتناب محارمه في ذلك الوقت ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة ولا هو مصر مطلقا. ٧٤٣/١٠

٤٤٠- والذي قد ترك المعاصي في شهر رمضان من نيته العود إليها في غير شهر رمضان مصر أيضا. لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها غير النية مع وجود القدرة فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى ولكن متى كان مريدا إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك. ٧٤٤/١٠

٤٤١- توبة العاجز عن الفعل كتوبة المجبوب عن الزنا وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ونحوه من العجز؛ فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم. ٧٤٦/١٠

٤٤٢- لو طلق في نفسه وجزم بذلك ولم يتكلم به فإنه لا يقع به الطلاق عند جمهور العلماء. وعند مالك في إحدى الروايتين يقع وقد استدل أحمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله: {إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها} فقال المنازع: هذا المتجاوز عنه إنما هو حديث النفس والجازم بذلك في النفس ليس من حديث النفس. فقال المنازع لهم: قد قال {ما لم تكلم به أو تعمل به} فأخبر أن التجاوز عن حديث النفس امتد إلى هذه الغاية التي هي الكلام به والعمل به كما ذكر ذلك في صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن. ٧٤٦/١٠

٤٤٣- فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجردھا، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة وذلك لا يكون إلا قليلا؛ ولهذا قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه وضعفه في بدنه وقوة المنافق في بدنه وضعفه في قلبه. وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} الآية. وهذه الآية وإن كان قد قال طائف من السلف إنها منسوخة كما روى البخاري في صحيحه عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن عمر: إنها نسخت، فالنسخ في لسان السلف أعم مما هو في لسان المتأخرين يريدون به رفع الدلالة مطلقا وإن كان تخصيصا للعام أو تقييدا للمطلق وغير ذلك كما هو معروف

في عرفهم وقد أنكروا آخرون نسخها لعدم دليل ذلك وزعم قوم: أن ذلك خبر والخبر لا ينسخ. ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعي. كالحبر الذي بمعنى الأمر والنهي. والقائلون بنسخها يجعلون الناسخ لها الآية التي بعدها وهي قوله: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}. ٧٦١/١٠

٤٤٤ - وحقبة الأمر أن قوله سبحانه: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه} لم يدل على المؤاخذة بذلك؛ بل دل على المحاسبة به ولا يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب؛ ولهذا قال: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} لا يستلزم أنه قد يغفر ويعذب بلا سبب ولا ترتيب ولا أنه يغفر كل شيء أو يعذب على كل شيء مع العلم بأنه لا يعذب المؤمنين وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مع التوبة. ونحو ذلك. ٧٦٢/١٠